10 RS ريال

هتف المراحم بالملاحم

بحث في اخلاقيات الحرب في السيرة النبوية

تأليف

إبراهيم بن عبداللَّه الغنام

إمام وخطيب جامع الملك فهد بعيون الجواء

قدم له الشيخ

خالد بن عبداللَّه الخليوي

دار العقيدة للنشر والتوزيع

إصدارات عقيدة

هتف المراحم بالملاحم

إبراهيم بن عبدالله الغنام

بحث في أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية

هتف المراحم بالملاحم

مقدم لمسابقة السيرة النبوية لرابطة العالم الإسلامي

لعام ١٤٢٨هـ

بقلم

إبراهيم بن عبدالله الغنّام

المقدمة

الحمد لله الحكيم الخلاّق، فاطر السبع الطباق، واهب الفضائل ومقسم الأرزاق، أحمده وأشهد أن لا إله إلا هو، شهادة أدخرها ليوم الحشر والمساق..

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، المبعوث بمكارم الأخلاق، السالك في دعوته سبيل البصيرة وطريق الإشفاق، فللّه المنّ والفضل يوم أن بعثه بالرحمة والإرفاق..

فاللهم صلِّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم الذي طابت سريرته، وحُمدت سيرته، وآله وصحبه ومن تبع ملته.

أما بعد:

فإن من يكتب في سيرة النبي ﷺ ليسلط الضوء على أخلاقه الحميدة، كمن يريد أن يجمع البحار بين كفّيه، أو يسبر غورها بنظر عينيه..

فالحقيقة المحمّدية لا يعلم أسرارها، وما انطوت عليه، إلا من أبدعها خير إبداع، وكوّنها على ما أحب ورضي، وصيرها بشراً رسولاً، وبعثها رحمةً للعالمين.

ولقد سرّني كثيراً، أن رأيت (رابطة العالم الإسلامي) طرحت مسابقتها في السيرة النبوية، فكانت بعنوان لطيف جميل هو (أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية)، **وكان ذلك السرور لما يأتي:**

١- العالم اليوم أحوج منه في أي وقت مضى إلى ميثاق أخلاقي في الحروب، يقوم معه العدل، وتُضمّد به الجراح، وتحترم فيه الإنسانية، لاسيما ونحن نشاهد تطوراً في الأسلحة الفتّاكة، مع ظلم كبير في أحقية امتلاكها، وسوء استخدامها، تدفعه الأنانية البشعة التي يأكل فيها القوي الضعيف، لتُهدر مع ذلك كل الأخلاق والقيم، وكلّ أمة تدَّعي أن الحق معها، وأن الصدق يجري في ركابها، ولا يزالون مختلفين، فالكل بشر،

لكن الأمر يختلف ظهراً على عقب حينما يكون ذلك البشر نبياً كريماً من عند ربنا العظيم، تجب طاعته، ويلزم اتباعه، لينتظم بذلك البرهان والبيان في إقامة الحجة على البشر، فمن شاء - بعد ذلك - فليؤمن، ومن شاء فليكفر!!.

٢- نشر تلك الأخلاق الحربية في أوساط المسلمين، ليعلموا هدي نبيهم في الحروب والمعارك، ونهجه القويم في جانبي الخُلق التعاملي، والإبداع العسكري، ليسيروا على منواله، لا سيما ونحن نرى كثيراً من المسلمين يتجاوز تلك الأخلاق، بنوع من التعسف، جهلاً منه، أو تفريطاً، فينعكس ذلك سلباً على دعوة الإسلام الحقة النيرة.

٣- الرد على خصوم الدعوة المحمدية، ومنكري فضل السيرة النبوية، حين يزعم أولئك الأعداء أن رسولنا الكريم ﷺ وسَّع من حُكمه باستخدام قوة السلاح، والحديد والنار، دون أدنى رحمة، وأنه كان يعطي أوامره لأتباعه بإراقة الدماء، وتحويل غير المسلمين إلى الإسلام، وإجبارهم على الحياة على الهامش تحت حكم الإسلام، ويزعمون أن تلك حقيقة محمد ﷺ، وحقيقة دينه، وتلك - فعلاً - حقيقة ما تريده سياسات عليا، ومنظمات كبرى، دب إليها الخوف من الحق، فما هي إلا امتداد لحسد عقائدي، وخواء فكري وأخلاقي، وُلد مع دعوة محمد ﷺ، وإن تغيّرت ألوانه وأشكاله، لكن تلك الدعاوى ما تلبث أن تتحطم في بحر عظيم، صفاته الكريمة، ومثله الرفيعة، وأخلاقه النبيلة، التي تفيض بها تلك الحروب، فلا يملكون لها رداً ولا يستطيعون لها عدا.

ولئن كان النبي ﷺ قد قال: «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له..**»[١]، فهو القائل أيضاً: «**إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[٢]، ليكون مؤدى الجمع بينهما، أن السيف الذي بُعث به ﷺ كان سيف أخلاق ورحمة وعدل وإحسان، كما سيظهر لك - إن شاء الله تعالى -.

وحينما رغبت أن أكتب في هذا الموضوع، وجمعت مصادري، وأخذت أقرأ في كتب السيرة النبوية والمغازي، وكتب السنّة والحديث، لأجمع مادته العلمية، وأسجّل ما أريد تدوينه، وجدت أن ذلك كجنّة خضراء غناء، لا يستطيع أهل البيان نعتها من حسنها، وأن الأخلاق بمثابة أشجارها المتشابكة الفروع والأغصان، فلا تدري لأي شجرة من تلك الأشجار كانت تلك الثمرة اليانعة، فكنت أجد في هذه السيرة العطرة ما أحتار في أي موضع من جهات الأخلاق الكريمة أدوِّنه؛ لأنه صالح لها كلها..

ورأيت أن شأن الحروب يكون النجاح فيه في ثلاث اتجاهات، وهي ذات القائد، وأتباعه الجند، وخصمه العدو، مع الحاجة إلى شيء من التمهيد في ذلك، فكان التقسيم كالتالي:

- **التمهيد:**

وهو عبارة عن موضوعات قصيرة لا بد منها، لتعلقها بالموضوع الأصل، لتكون منطلقاً إلى الأقسام.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٠)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٥١١٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٨١)، ومالك في الموطأ، كما في تنوير الحوالك (٣/ ٩٧)، بلفظ "حُسن"، بدل "صالح"، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر برقم (٨٩٣٩)، وذكر بعض من أخرجه.

- **القسم الأول: (القائد).**

وفيه الحديث عن أبرز السمات والصفات في شخصية النبي ﷺ، كقائد للمسلمين في تلك الغزوات أو السرايا، ليتناول هذا القسم الصفات البدنية والروحية والعقلية الذهنية، مع نزاهة الحرب، وسلامة المقصد، ووضوح الهدف.

- **القسم الثاني: (الجند).**

ويكون فيه الحديث عن الأخلاق التربوية، والتعاملية، والإعدادية لأولئك الجند، بصفتهم بشراً قد ميزهم الله بالإسلام.

- **القسم الثالث: (العدو).**

وأدون فيه ما يتعلق بالتعامل مع العدو، قبل الحرب، وأثنائها، وبعدها، وكيف جمع النبي ﷺ بين الانتصار الأخلاقي، والانتصار العسكري، والانتصار السياسي!!.

ثم تكون الخاتمة، وإثبات المراجع والمصادر، وفهارس الموضوعات.

وحُبب إليَّ أن يكون اسمه دالٌ على محتواه، فأسميته «**هتف المراحم بالملاحم**»، فكأن الأخلاق والمراحم رأت الظلم قائماً، والجور سائداً، فدعَتْ للعدل، فلم يُسمع لها، فاضطرت لأن ترفع صوتها بالنداء، فلبت الملاحم، فأقبلت، ولها من جراء ذلك حداء، ليكون النداء والحداء لحناً أخلاقياً رائعاً، لم تشهده البشرية من قبل، تمثل في سيرة نبينا محمد صلوات ربي وسلامه عليه.

فجرى بذلك القلم، فاللهم لك الحمد، كالذي نقول، وخيراً مما نقول، وصلِّ اللهم على خير من وطئ الثرى، وآله وصحبه، ومن لسنّته اقتفى، وبهديه اهتدى...

وكتبه/

الفقير إلى عفو الغني

إبراهيم بن عبدالله الغنَّام

حرر في ٨/ ٨/ ١٤٢٨هـ

التمهيد

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[سورة القلم: آية ٤].

استمر ذلك الخلق العظيم في الحرب كما هو في السلم على حد سواء!!

بل زاد بهاءً وإشراقاً..

[١]

وكفى بالله شهيداً

في كل غزوة غزاها رسول رب العالمين محمد ﷺ منظومة أخلاقية، تختلف في بهائها وحُسنها عن الغزوة الأخرى، لكنها في النهاية تمثل عقداً فريداً متناسقاً من أخلاقيات الحرب، التي لم يحفل بها قائد غيره.

وأنت حينما تقرأ في تلك الغزوات، وكيف جاءت بترتيبها التاريخي، وأسمائها اللامعة، وأحداثها الساخنة، ودروسها الساطعة، لتؤمن قطعاً أن تلك كانت أنوار كاشفة، جرت بإرادة الله وإحاطته، ليَظهر زيف الباطل وزخرفه، أمام صدق الحق وصولته.

لتظل تلك الغزوات منارات هداية، كل واحدة منها تشير إلى أختها، حتى يتحقق من خلالها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[١]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾[٢].

---

(١) سورة التوبة، آية (٣٣)، وسورة الصف، آية (٩).

(٢) سورة الفتح، آية (٢٨).

[٢]

في سبيل الله

(مسلم) ذلك الوصف الذي طبع به محمد ﷺ أتباعه، وهو يُشعرنا بـ (التسليم) و(المسالمة)، التسليم لله في أمره ونهيه وحكمه، وأن الحق ما شرعه والباطل ما أبطله.

والمسالمة للناس بالصدق والرفق والإحسان باليد واللسان، فإن لم يكن الإحسان، فلا أقل من كف الأذى، ذلك هو الأصل في الحياة.

بيد أن (التسليم لله) أقوى وأمضى، وأحق من (المسالمة للبشر) في حال تعارضهما، فالله خلق الناس جميعاً، وشرع لهم جميعاً!! فإذا ما كان في الحياة أن طائفة من الناس رفضت التسليم لله، وسخرت منه، وناصبت أهله العداء، وأخذت تقتل منهم وتؤذي!! فعندئذ يشرع لأهل التسليم والمسالمة - بجميع القوانين والأعراف - أن يدفعوا عن أنفسهم، وأن ينافحوا من أجل مبادئهم.

إذ ليست قيمة الحياة في نظرهم مال وشهوة، أو كأس وغانية، وإنما (عقيدة)، ومبدأ من أجله يحيا وفيه يموت.

لأجل ذلك كان محمد ﷺ عند قتاله للكفّار يؤكد في كل مرة أنّ ذلك القتال في سبيل الله، وأن ما كان في سبيل غيره فباطل، أياً كان ذلك السبيل.

وما دام الأمر كذلك، فلا بد أن يكون القتال محكوماً بما أراد الله؛ إذ هو الذي شرعه، فليس من (التسليم لله) في شيء أن نقاتل في سبيله، ثم نخرج أثناء قتالنا أو قبله أو بعده عن هذا السبيل.

وفي الوقت الذي أمرنا به ﷺ بلزوم هذا السبيل، لم يتركنا إلا وقد جلّى لنا معالم هذا السبيل في سيرته العطرة، وأخلاقه المباركة.

وها هو ﷺ كان يمشي في أحد المشاهد، فأصابه حجر، فعثر، فدميت إصبعه، فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت[١]

حتى ما يصيب الإصبع من قليل الدم، فهو في سبيل الله؛ لأنه لا يريد منا أن نخرج عن هذا السبيل قيد أنملة.

ولذا فالأمر كما قال ابن القيم رحمه الله: (فلا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل، إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم، وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير...)ا.هـ[٢].

ولو ترك الله الناس بلا رسل ولا أنبياء، لكانت لهم حجة في ترك طاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[٣].

وختم ربنا العليم الحكيم تلك الرسالات برسولنا الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، الذي كانت بعثته رحمة للعالمين، ليهدي خليقته إلى الصراط المستقيم، ويخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٣) (٢٨٠٢).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٦٩).

(٣) سورة النساء، آية (١٦٥).

[٣]

الإسلام دين واقعي

بدأ الرسول ﷺ دعوته بالحسنى والموعظة، يتلو على قومه ما يتنزل عليه من كتاب الله، ويحدثهم من قلبه وعقله، بما يفتح عيونهم على ما هم فيه من وثنية وخرافة وضلال وجهل.

فكان على البشرية عامة، وعلى العرب وأهل مكة خاصة، أن تُقبل على هذا الهدى وتلك البينات، لأن الحجة قائمة عليهم أكثر من غيرهم، لما يعرفونه - أيضاً - من صدقه، وأمانته، وعفته، ونزاهته، منذ نشأ، وقد كانوا يشهدون له بذلك من غير نكير ولا مكابرة، وهم مع ذلك لا يدينون بدين حق، ولا كيان لهم ينضوون تحته، ولا قاعدة يعتمدون عليها، إنما هم عبدة أوثان، ضعيفهم طعمة لقويهم، فكان الواجب عليهم أن يكونوا أول من يؤمن به، وينصره، ويؤازره.

غير أنهم مع ذلك كله أبوا إلا المكابرة والعناد، فقابلوه بالصد والسخرية تارة، والافتراء والأذى تارة، إلى أن بلغ الحد أنهم أخذوا يتآمرون على قتله أخيراً، فكان إذن الله له بالهجرة.

فهيأ الله لدعوته مكاناً تستقر فيه آمنةً مطمئنة، لكنه واجه في مكانه الجديد - المدينة - قوتين تتربصان به الدوائر: قريشاً التي أقض مضجعها هجرته وأصحابه إلى المدينة، فآمن بدعوته أهلها، فغدت له قوة تتمزق لها مرائر قريش.

وقوة اليهود التي حرص النبي ﷺ على أن يقيم معها علاقة سِلْمٍ منذ استقراره، ولكن طبيعة اليهود طبيعة حاقدة، ماكرة، متآمرة، فما كاد النبي ﷺ يستقر بالمدينة، وتتم

له زعامة المهاجرين والأنصار حتى شرق زعماء اليهود بالحسد والغيظ من هذه الزعامة التي نافستهم وسيطرت على المدينة سيطرة تامة.

وقد كان الرسول ﷺ - قبل ذلك - مدة مقامه بمكة، تتنزل عليه آيات القرآن الكريم بالصبر على ما يقولون: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾[1]، وكان المشركون كلما تنزلت آيات الصبر على أذاهم ازدادوا في الأذى والكيد والعدوان، ولم يكن المسلمون يومئذ قادرين على صد الأذى؛ لقلتهم واستضعافهم، فلما استقر النبي ﷺ بالمدينة، وأصبحت للمسلمين شوكة ومنعة، واجهتهم قوة قريش وعداوتها، وضغينة اليهود وخبثهم، باحتمال العدوان عليهم في كل حين، والإسلام دين واقعي، لا يُغمض عينه عن الواقع، ويتبع الأوهام، والمثل العليا، إزاء قوم لا يؤمنون بهذه المثل، ولا يحترمونها، فكان لا بد له من أن يحتمي بالقوة، ويستعد لرد العدوان، ويقضي على قوة الباطل وشوكته، ليفسح المجال أمام دعوته الخيرة المحررة، لتخاطب العقول، وتزكي النفوس، وتصلح الفساد، وتجعل للخير أعلاماً يهتدى بها، ومنارات تضيء الطريق لمبتغي الهداية والرشاد.

فأذن الله تعالى لنبيه ﷺ بالقتال لرد الظلم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾[2].

وعندئذ أخذ النبي ﷺ يرسل السرايا، سرية بعد أخرى، ويغزو الغزوات، غزوة تلو غزوة، حتى أتم الله له الدين، ونصره النصر المبين.

---

(١) سورة المزمل، آية (١٠).

(٢) سورة الحج، آية (٣٩).

لكنه ﷺ لم تكن غزواته وسراياه وقتاله كقتال الجبّارين المتكبرين، الذين يعيثون في الأرض فساداً، وإذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

بل كان قتاله قتالٌ شرعه الله، وأظلته الرحمة، ورعته العدالة، وجملّته الفضيلة؛ لأنه قتال نبوة، لا قتال مغالبة، وتناحر لأغراض تافهة، وقد قال ﷺ عن نفسه - وهو يعدد أسماءه الشريفة: «**أنا محمد، وأحمد، والمقفَّى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة**»[١]، وفي رواية عند أحمد وغيره: «**ونبي الملحمة**»[٢].

والرحمة والملحمة متلاقيتان في سيرته؛ إذ ما كانت الملحمة إلا لأجل المرحمة، لأنها توصل إلى الرحمة بإدخال الناس في الدين الحنيف، وتقطعهم عن الفساد الخُلُقي، والشر الاجتماعي، فالملحمة إذن متعينة لنشر المرحمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٢٨) (٢٣٥٥).

(٢) مسند الإمام أحمد (٤/ ٣٩٥، ٤٠٤).

[٤]

(السلم) قبل (الحرب)

«**لا تمنّوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا**»(١)، هكذا قال رسولنا ﷺ؛ لأنه كان يؤثر حلَّ مشكلاته مع أعدائه بالطُّرق السلميّة، ويتحاشى الصدام المسلّح، وإراقة الدماء ما استطاع، وهذا ما شاهدناه منه عليه الصلاة والسلام عندما حلّ بالمدينة النبوية، وفيها من اليهود الحاقدين جماعاتٌ غير قليلة، فلم يبدأهم بالحرب، بل عقد معهم معاهدة سياسية، جمّدت عداوتهم إلى حين.

ولما قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه عليه ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوسٌ، قال: «**اللهم اهدِ دوساً وائت بهم**»(٢).

ولما جاءه رجل مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله: أُقاتِلُ أو أسلم؟ قال: «**أسلم، ثم قاتل**»(٣).

فنرى هنا كيف أن النبي ﷺ وجهه للإسلام قبل أن يُدخله ساحة المعركة، مما يؤكد أن الحرب ليست غاية بذاتها، إذ لو كانت كذلك لأذن له بالقتال معه، وفرح بذلك، ولو لم يسلم، فكان ظاهراً أن فرحه بإسلامه أشد من فرحه بقتاله.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٨١) (٣٠٢٦)، قال ابن حجر رحمه الله: "واستدل بهذا الحديث على منع طلب المبارزة، وهو رأي الحسن البصري، وكان علي يقول: لا تدع إلى المبارزة، فإذا دعيت فأجب تنصر، لأن الداعي باغ" ا.هـ.

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٢٦) (٢٩٣٧).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٠) (٢٨٠٨).

وهكذا كان النبي ﷺ حريصاً على إسلام الناس وهدايتهم، لكنه قد يحول بينهم وبين الإسلام، وبين النبي ﷺ، وتبليغ دعوته مشكلات يستحيل حلها بالطرق السلمية، فتكون الحرب هي اللغة الوحيدة التي يدفعه الخصوم للتحدث بها.

ففي هذه الحالة كان رسول الله ﷺ ينظر، فإن كان بإمكان جيشه بكفاءته الحاضرة انتزاع النصر أقدم، ولم يتردد في خوض الحرب، فإن رأى أن المعركة خاسرة، وأنه لا أمل فيها بالنصر، لجأ إلى كسب المعركة بالدهاء السياسي، لا بحد السلاح، وكثيراً ما يكون الدهاء السياسي لمن رزقه أمضى، وأجدى من كل سلاح.

[٥]

الاستقرار الداخلي مطلب

كان من حنكة النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة، أنه كان يخرج خارجها، فيعاهد أولئك القوم، ويصالح آخرين، تمهيداً لكسب أولئك القوم، أو على الأقل الأمن من شرهم.

إذ كان يعلم ﷺ أن كل دولة لا يتهيأ لها الأمن، والاستقرار الداخلي، تبقى في اضطراب دائم، يمنعها من بناء ذاتها، ويضعفها عن الوقوف في وجه عدوَّها، ولذلك كان رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه حريصاً على هذا الاستقرار الداخلي في دولة الإسلام، فعقد معاهدةً مع اليهود تضمن هذا الاستقرار، لأن اليهود يمكن أن يكونوا مصدر إزعاج للدولة، وقد جاء في هذه المعاهدة: "أن اليهود أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلَمَ وأثِم، فإنه لا يُوتِغُ - أي: لا يهلك - إلا نفسه وأهل بيته..."[(١)].

وكان رسول الله ﷺ لا يرى حرجاً في تقديم بعض التنازلات السياسية، غير العقدية في سبيل إيجاد الاستقرار في الدولة، ونجد هذا في موقفه المتكرر مع رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول.

فقد كان ابن سلول ذا مكانة مرموقة في المدينة، وقد قدم رسول الله ﷺ، وإن قومه لينظمون له الخَرَزَ، ليتوِّجوه عليهم، وكان له فيها أتباعٌ غير هؤلاء، يضمون جميع الحاقدين والمتآمرين والسفلة، فكانوا يأتمرون بأمره، وكانوا كُثُر، فرأى رسول الله ﷺ

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٠٦-١٠٨)، والسيرة النبوية الصحيحة، للعمري (١/ ٢٧٢-٢٧٥).

أن لا يهيج ابن سلول؛ لأنه في إهاجته إهاجة للقلاقل، وعصفاً بالاستقرار الداخلي في الدولة.

وحين نقض يهود بني قينقاع ما بينهم وبين رسول الله ﷺ - وكانوا أول يهود نقضوا العهد -، حاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبدالله بن أبيّ بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في مواليَّ! فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في مواليَّ! فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له: «**أرسلني**»! وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلاً، ثم قال: «**ويحك أرسلني**»، قال: لا، والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ: أربعمائة حاسر، وثلاثمائة درع، قد منعوني من الأحمر والأسود - أي: العرب والعجم - تحصدهم في غداة واحدة! إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «**هم لك**»[(١)].

فاستجابة الرسول ﷺ لطلب ابن سلول كانت لأجل الحفاظ على المصالح المكتسبة، وإيثاراً للاستقرار الداخلي.

وعندما صدر من بني النضير ما صدر، طلب منهم الرسول ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام، فمن رأوه بعد ذلك ضُربت عنقه.

وعندما استعدوا للخروج حرّضهم عبدالله بن أبي بن سلول على عدم الخضوع، ومنّاهم بالوقوف إلى جانبهم، فأعلنوا العصيان، فحاصرهم المسلمون[(٢)].

---

(١) رواه ابن إسحاق، كما عند ابن هشام (٣/ ٥-٦)، والواقدي (١/ ١٧٧-١٧٨)، وذكره ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٩).

(٢) ذكره ابن إسحاق، كما عند ابن هشام (٣/ ١٠٩، ١١٢)، وابن سعد (٢/ ٥٧-٥٨)، ورواه الواقدي (١/ ٣٦٧-٣٦٩)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٨١-١٨٣).

وقد أشارت آيات سورة الحشر إلى هذا، كقوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

فلما مكّن الله رسوله ﷺ منهم، عفا عنهم، وأجلاهم من المدينة، وعفا عن ابن سلول، كل ذلك إيثاراً للعافية، وتحقيقاً للاستقرار الداخلي للدولة.

ألا ما أجلّ ذلك البحر المتدفّق من الحكمة المحمّدية، إذ كان ينظر بعين ثاقبة إلى مجريات الأحداث، وما تؤول إليه الأمور.

---

(١) سورة الحشر، آية (١١).

[٦]

لمـــاذا قاتـــل محمد ﷺ؟!

سؤال يتردد بقوة في أذهان من لم يقرأ سيرة النبي محمد ﷺ، أو من تكون معرفته لها معرفة سطحية، بل هم كثير، أولئك الذين تصلهم حقيقة تلك السيرة مشوهةً، وعندها لا يصح تسميتها بالحقيقة!!.

ونحن حينما نرجع لتلك السيرة العطرة، نجد أن قناعة الناس بدعوته ﷺ ومحبتهم لها، هو السبب الأقوى والدافع الأكبر لاعتناقهم للإسلام، ولذلك.. فإن من تذوق حلاوة تلك الدعوة، وآمن بها، ووقف على معانيها العظيمة قلَّ أن يرجع عنها.

وحين سأل هرقل أبا سفيان: هل يرتد أحدٌ منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟! قال أبو سفيان: لا، قال هرقل: كذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب[1].

وقد نجح النبي ﷺ نجاحاً مذهلاً، بإقناع كثير من الناس بصحة دعوته الرّبانية، ورسالته السماوية، على الرغم مما كان عليه المجتمع من جهل وعناد، وما وُجه به من ألوان السخرية، وصور الاستهزاء.

وما كان لهذا النجاح أن يتحقق لولا صدق الرسالة، ووضوح الدعوة، وكثرة البراهين التي كانت تجري معها.

كما كان النبي ﷺ يرسل الدعاة إلى البلدان، ويوجههم بإقناع الناس، واتباع التدرج في ذلك، وتوخي الحكمة، فهو حين أرسل معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن، قال له: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّي**

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (١/ ٤٢) (٧)، ومواضع أخرى، ومسلم (٣/ ١٣٩٣) (١٧٧٣).

رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، وإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

ونحن نعرف تماماً من السيرة النبوية كيف كانت قبائل العرب تأتي بنفسها لتبايع النبي ﷺ على الإسلام، مقتنعة غير مكرهة، راغبة غير مجبرة.

فالعجب كل العجب من قوم يقولون: إن النبي ﷺ قاد الناس إلى الإسلام بالسلاسل والحديد، وأنه أجبرهم على ذلك بحد السيف!!.

إلا أنه ومع كل تلك الوسائل الدعوية اللطيفة، والأساليب الرائعة الجذابة، والحقائق الناصعة الأخاذة، كان لدعوته أعداء وخصوم، شرقوا بها، وكانوا يحاولون - دوماً - القضاء عليها، وعلى كل من آمن بها، فقاتلهم النبي ﷺ.

ومن هنا يمكن أن نجمل أهم الأسباب التي قاتل من أجلها النبي ﷺ، فنقول:

أولاً:

هو **(رسول الله)**، وبالتالي هو يقاتل حين أمره ربه بذلك، ونحن نعلم جميعاً أن الرُسل يعملون تبعاً لما يشرعه الله، ويوحي به إليهم، لأسباب ربما يظهر لنا بعضها، ويخفى بعضها، والعقل البشري يظل عاجزاً عن إدراك جميع ما ينفعه، وما يضره، فضلاً عن ما يصلح المجتمعات، وما يفسدها.

كما نعلم وجوب الإيمان بالوحي الذي لا طريق لمعرفته إلا **(الكتب السماوية، ورسل رب العالمين)**، تقول عائشة رضي الله عنها: **(لما رجع رسول الله ﷺ يوم الخندق، ووضع**

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٣/ ٣٠٧) (١٣٩٥)، ومسلم (١/ ٥٠) (١٩).

السلاح واغتسل، أتاه جبريل، فقال: وضعت السلاح؟ فوالله ما وضعته، فقال رسول الله ﷺ: فأين؟ قال: هاهنا - وأومأ إلى بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله ﷺ)[١].

ثانياً:

قاتل النبي ﷺ تبعاً لسنة الابتلاء والتمحيص، والأنبياء أشد الناس بلاءً، والشدة تُظهر معادن الناس، كما تُظهر النار خبث الحديد، ليشكل النبي ﷺ ومن تبعه - إلى يوم القيامة - أنموذجاً يحتذى في الصبر والمصابرة، والجهاد والمرابطة، والثبات على الحق والفضيلة.

ويشكل أعداؤه - إلى يوم القيامة - (محور الشر)، وجند الشيطان، الذين يصرفون الناس عن الحق والخير، ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً.

فيظهر للناس بعد ذلك كمال القدوة، وتمام الأسوة بنبي الرحمة، والملحمة محمد ﷺ، ولذا فلا عجب أن تجد قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٢]، بين آيتي الأحزاب، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٣]، في معرض آيات تتحدث عن أسلوب التعامل مع العدو.

ثالثاً:

قاتل محمد ﷺ ليدفع عن المؤمنين الظلم والأذى والفتنة التي كانوا يُسامونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر مبدأً عظيماً يبين أن الفتنة

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٧) (٢٨١٣).

(٢) سورة الأحزاب، آية (٢١).

(٣) سورة الممتحنة، آية (٦).

أشد من القتل، فاعتبر الاعتداء على العقيدة، والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها عنها جريمة أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم.

رابعاً:

قاتل محمد ﷺ لأنه جاء من عند ربه، بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة.

جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها، ويبلغه إلى أسماعها وقلوبها، فمن شاء بعد البلاغ والبيان فليؤمن ومن شاء فليكفر، فلا إكراه في الدين.

ولكن ينبغي قبل ذلك: أن تزول العقبات عن طريق إبلاغ هذا الخير، ودعوة الناس له، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا، وأن يقتنعوا، وأن ينضموا إلى موكب الهدى، إذا أرادوا، ومن هذه الحواجز تلك النظم الطاغية التي تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى، وتفتن المهتدين.

فقاتل محمد ﷺ ليحطم هذه النظم الطاغية، ليقيم مكانها نظاماً عادلاً، يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان، وحرية الدعاة إليه.

خامساً:

قاتل محمد ﷺ لإقامة (العدل)، ورفع (الظلم) الذي يبلغ منتهاه حينما يعبد الخلق بعضهم بعضاً، ويتركون من خلقهم!!.

فجاء دينه ليقرر العبودية لله وحده الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها، فليس هناك فرد، ولا طبقة، ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم تبعاً لذلك، إنما هناك رب واحد للناس جميعاً، هو الذي يشرع لهم على السواء.

فحقق بذلك حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان.

سادساً:

لم يحمل محمداً ﷺ السيف ليكره الناس على اعتناق دينه، وعقيدته، ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه!! إنما ليقيم نظاماً آمناً، يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له، وإن لم يعتنقوا عقيدته.

ومن قرأ التاريخ جيداً، يعلم كيف كان يصنع المسلمون عند انتصارهم في الحروب والمعارك، وكيف كان يصنع غير المسلمين!!.

ثم إن القوة والحزم حين تسير، ومعها الرحمة والعدل، يفرح بها الجميع، فتقوم بها المصالح الاجتماعية، والدينية، والدنيوية، وتتلاشى المفاسد، بخلاف الضعف والخور، فهو لا يرقى أن يصنع تلك المعاني الجميلة، والحكم النبيلة.

لأجل ذلك ولغيره قاتل محمد ﷺ، لتحدثنا بعد ذلك الغزوات التي خاضها، والسرايا التي ابتعثها حديثاً مفعماً بالآداب، مليئاً بالفضائل، تسوسه الشجاعة، وتحوطه الرحمة.

[٧]

الغـزوات والسرايــا

الفـرق بـين الغـزوة والـسرية، أن الغـزوة: مـا خـرج فيهـا النبـي ﷺ بنفـسه لقتـال المشركين، سواءً حدث فيها قتال أم لم يحدث.

وأما السرية: فهي كل بعث يبعثه النبي ﷺ بعـدد مـن المؤمنين لهـدف مـن أهـداف المشركين، ولم يخرج فيها النبي ﷺ غالباً.

وقد بلغ عدد غزوات الرسول ﷺ ستاً وعشرين، أو سبعاً وعشرين غزوة، وبلغت سراياه سبعاً وأربعين سرية تقريباً[١].

وما كاد النبي ﷺ يستقر في المدينة حتى بـدأت المعـارك الحربيـة بينـه وبـين قـريش، ومن والاها من قبائل العرب، ثم اليهود حين نكثوا العهود!!.

ولكل غـزوة وسريـة لـسان نـاطق، يـستعمل أروع أسـاليب البيـان، وأجمـل خوالـد الحكم، تخاطبنا الغزوات فتقول:

انظـروا كيـف كـان القائـد مـشاركاً لجنـده في ميـدان المعركـة، يـألم لألمهـم، ويفـرح بنصرهم، ويتحسس عناءهم، ويباشر المهام بنفسه، فـلا يتحـدث مـن بـرج عـاجي، أو قصر فاره، وإنما يتواضع من غير ذلة، ويعتز من غير كبر، وينتصر من غير فخر.

لأن كل رئيس لا يشاطر مرؤوسيه همَّ العمل، نسج بنفسه بردة الإحباط والفـشل، وألقاها على من تحت يده!!.

---

(١) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٥-٦)، والمغازي للواقدي (١/ ٧).

بينما تحدثنا السرايا فتقول:

المركزية داءٌ عضال، تموت بوجوده الهمم، وتتهاوى الإرادات من أعلى القمم، فلا وجود لإبداع، ولا مكان لتجديد، فبموت الرئيس المركزي أو غيابه تتعطل جميع مشاريع العمل.

فمن أجل ذا وذاك، مزج النبي ﷺ في سيرته بين الغزوة والسرية، والمشاركة، ومنح الثقة، فكان يباشر من غير استعباد، ويوجه من غير تسلط، فأنشأ تلاميذ قادة، عرفوا كيف يصعدون على عتبات التاريخ، ليُسمعوا العالم كلمة الحق غير مبحوحة بها أصواتهم:

«جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

فيرى العالم بعين ليس بها عمى، وأذن ليس بها صمم، كيف تُحمى (العقيدة) بكف الرأفة، وكيف يقوم سوق (العدل) بسيوف الرحمة!!.

[٨]

المدخـــل للأقســام

إن الميراث الأخلاقي، والنجاح العسكري لقائد ما، لا يمكن معرفته من خلال صفاته الشخصية فحسب، وإنما يكون ذلك - أيضاً - من خلال تعامله مع المواقف في الحروب، بكل ما يكون في تلك الحروب من قيادة، وتخطيط، وجنود، وأسلحة، وعدو متربص، وغير ذلك.

مما يجعلني أقدِّم الاعتذار في تداخل المواقف، فلربما مكننا موقف واحد أن ننهل مجموعة من الأخلاق، والفوائد، لاسيما حين ننظر بأفق أوسع، من خلال زواياه المختلفة.

كما أقدِّم الاعتذار في الاختصار؛ إذ ليس المقصود الاستقصاء بقدر ما هو إشارة إلى بعض جوانب أخلاقيات الحرب المبهجة التي زخرت بها سيرة رسولنا الكريم ﷺ.

بل قد يكتب غيري في ذات الموضوع، ويأتي ببديع من الفوائد، ودرر من الفرائد لم تخطر لي على بال.

وحينما أُتيحت لي فرصة البحث في هذه السيرة المباركة، كنت كلما كررت قراءة مقطع منها ظهرت لي عبر ودروس غير تلك التي ظهرت في المرة الأولى، حتى تجلّى لي أن الله الذي أرسل محمداً ﷺ، أراد أن تكون سيرته معيناً يتدفق إلى قيام الساعة، لا تؤثر عليه تغيرات المناخ، ولا مفسدات البيئة؛ ليرد إليه كل راغب، فيجد الماء عذباً، والظل وارفاً، والجو عليلاً.

يقول اللواء الركن مصطفى طلاس في كتابه «الرسول العربي وفن الحرب»:

(وإنني أقول بكل ثقةٍ ويقين: إن المبادئ العسكرية التي طبقها الرسول في معاركه وغزواته وسراياه وحملاته، ما تزال صالحةً إلى يومنا هذا، كما أن الآفاق الاستراتيجية العليا التي مارسها الرسول العربي على صعيد الحرب والسِّلم، ما تزال منارةً تُشع، لتهدي إلى سواء السبيل)[1].

والآن هيا معي فضلاً لا أمراً، لنتجول في تلك الأقسام الثلاثة واحداً تلو الآخر...

(١) الرسول العربي وفن الحرب، للواء الركن مصطفى طلاس (ص٢٨٢).

القسم الأول

القائـــد

قـال الله تعـالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب: آية ٢١].

تـتلى هـذه الآيـة عـلى مـسامع الأجيـال وهـم في غفلـة، مـن أنهـا بـين آيتـي الأحزاب، ومـا ذاك؛ إلا لأن الحـرب تكـشف الحقـائق، وتظهـر الـصدق، وتجـلي الكذب، فيظهر معها بريق الأخلاق!!.

مـدخـــل

من الخطأ أن نظن أن قواعد الحرب كمعادلات الكيمياء التي تحدد العناصر فيها حتمية النتيجة؛ لأن الحرب تتداخل فيها عناصر كثيرة، وربما مفاجئة تؤثر على حتمية النتيجة، ومن هنا كانت نتائج الحروب تتوقف بقدر كبير على عبقرية القائد، وتكوينه الذهني.

والقيادة الأصلية فِطرةٌ تُخلق مع الإنسان، يتصرف القائد بها التصرف الحكيم، الموافق للظرف الذي هو فيه.

والشخصية القيادية فطرة يصقلها التدريب والعلم، فهناك أشخاص خُلقوا ليكونوا قادة، لما حباهم الله في أصل خَلْقِهم من الصفات والمزايا التي تؤهلهم للقيادة، فإذا ما أتيحت القيادة لهؤلاء كانوا قادة أفذاذاً.

وهناك أشخاص استلموا القيادة، دون أن تتوفر لهم هذه الصفات والمزايا، فكانوا خير مثال للقائد الفاشل.

وإن الناظر في أوضاع الحرب وآثارها وخلفياتها، حين ينظر إلى غزوات النبي ﷺ، وبعوثه، وسراياه؛ لا يملك إلا أن يسلِّم بالرحمة النبوية، والبراعة العسكرية التي قاد بها النبي ﷺ جنده، فكان أكبر قائد عسكري عرفته الدنيا، وأرحم مقاتل تحدثت عنه ساحات الحروب.

ولك أن تتأمل كيف غيرَّ النبي ﷺ أغراض الحروب، وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحروب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، وقهر الضعيف، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والإفساد في

الأرض، إذ بها تتحول - في الإسلام - إلى جهادٍ في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان، فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى شريعة يصير فيها القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه، فأضحت تلك الحروب جهاداً لتطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم، إلى بسط الأمن والسلام، والرأفة والرحمة، ومراعاة الحقوق والمروءة.

[١]
الشجاعة ورباطة الجأش

تعد الشجاعة والثبات من أمهات الأخلاق التي تستهوي الجميع، وذلك لما يندرج تحتها من أخلاقياتٍ كُثر، كالكرم، والنجدة، والصبر، والحلم، والنبل، والوفاء، والشهامة..

وحين كان الجُبن خُلق رذيل، يتفرع عنه صورٌ أخرى من سيئ الأخلاق، تعوذ منه النبي ﷺ، بل كان يتعوذ منه دبر كل صلاة[١].

وحينما رجع النبي ﷺ من حنين، عَلِقَتِ الناس، يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرةٍ، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العِضَاة نعماً لقسمتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوباً، ولا جباناً**»[٢].

ألا إنها الشجاعة، قد جرَّت معها الكرم، وهتفت بالصدق.

وبالقدر الذي كان يتعوذ به النبي ﷺ من الجبن، وينفِّر منه، كانت خطوط الشجاعة تشق طريقها صوب العدو، لتنال منه.

بل كان الصحابة رضوان الله عليهم، يعدون الشجاع فيهم من يقرب من النبي ﷺ إذا دنا العدو لقربه منه.

قال البراء رضي الله عنه: «**كنا، والله إذا احمرَّ البأس[٣]، نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ**»[٤].

---

(١) كما روى البخاري، في الفتح (٦/ ٤٣) (٢٨٢٢).

(٢) رواه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٤٢) (٢٨٢١).

(٣) كناية عن شدة الحرب، واستعير ذلك لحمرة الدماء، أو لاشتعال النار كاحمرار الجمر.

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٠١) (١٧٧٦)، وأصله في البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٩٠) (٣٠٤٢).

وإليك هذا الوصف البليغ من فارسٍ كانت تعرفه ساحات الوغى، وتفر منه الشجعان، ذلكم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: (كنا إذا حمي الوطيس، واحمرّت الحِدَق، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقربُ إلى العدوِّ منه، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو)[١].

تلك الشجاعة النادرة التي تغذي قلوب المؤمنين، كلما كانت في سبيل الله، ولإعلاء كلمته، ونشر دينه، وإقامة العدل الذي أُمر به.

ولو كانت الجمادات تتحدث لنطق جبل أحد بشجاعته، فحين ناجز النبي ﷺ أعداءه فهزمهم، ثم دالت الحرب عليهم بمخالفة الرماة أمره، وتركهم موقعهم الأهم، فانهزم جند الإسلام، فصمد النبي ﷺ صمود أحد، لم يتأخر شبراً عن موطنه، يقاتل، ويجالد بسيفه، وقوسه، ورمحه، وينادي جنده للالتفاف حوله.

يقول المقداد رضي الله عنه: (لا والذي بعثه بالحق، إن زال رسول الله ﷺ شبراً واحداً، وإنه لفي وجه العدوِّ، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة، وتصرف عنه مرة، فرُّبما رأيته قائماً يرمي على قوسه، ويرمي بالحجر حتى تحاجزوا، قال: وثبت رسول الله ﷺ، كما هو في عصابة صبروا معه)[٢].

بل كانت تلك الشجاعة تتحدث حتى مع إصابته، فلما تسامع المسلمون أن النبي ﷺ قد قُتل، إذ به يقبل نحو المسلمين، فكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك رضي الله عنه، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ! فأشار إليه ﷺ أن اسكت، واجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معه إلى الشِّعب الذي نزل فيه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والحارث بن الصِّمة الأنصاري وغيرهم.

---

(١) الشفا (١/ ١١٦)، وأصله عند أحمد في المسند، في موضعين (١/ ١٢٦) (١/ ١٥٦).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٦٤).

فلما أسندوا في الجبل، أقبل اللَّعين أُبي بن خلف على فرسه، وهو يقول: أين محمد، لا نجوت إن نجا، وهو الذي كان يقول يوم بدر: عندي فرسٌ أعلفها كل يوم، أقتلك عليها، فيقول له النبي ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**».

فلما رأى رسول الله ﷺ شد أُبيّ على فرسه، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي ﷺ: خلو طريقه، وتناول الحربة من الحارث بن الصِّمة فانتفض بها انتفاضةً تطايروا عنه تطاير الشَعراء[١] عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ، فطعنه طعنة تدأدأ[٢] منها عن فرسه مراراً، فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون له: لا بأس عليك، فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك، والله لو بصق عليَّ لقتلني، فمات بسرف في طريق عودته[٣].

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يقول لأصحابه: اعطفوا عليه، فاقتلوه، وبذلك يوفر على نفسه المخاطرة بحياته، ويضمن قتله!!.

لكنه وعد الشجاع الصادق: «**أنا أقتلك إن شاء الله**»، الذي أدركه الجبان الكاذب "والله لو بصق عليَّ لقتلني".

وفي هذا يقول حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

ألا مَنْ مبلغ عني أُبيًّا ... لقد أُلقيت في سُحق السعير
تُمنِّي بالضلالة من بعيد ... وتقسم إن قدرت مع النذور
تُمنِّيك الأماني من بعيد ... وقول الكفر يرجع في غرور

---

(١) الشَعراء: الذباب الذي يلسع.

(٢) أي: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٣١)، والفصول في سيرة الرسول لابن كثير (ص١٤٩)، والشفا (١/ ١١٦-١١٨).

فقـد لاقتـك طعنـة ذي حفـاظ كـريم البيـت لـيس بـذي فجـور
لـه فـضل عـلى الأحيـاء طُـرا إذا نابـت ملـمَّات الأمـور[1]

وقد حملت النبي ﷺ شجاعتُه أن يقوم بنفسه بحراسة ثلمة كانت في الخندق، كان يخشى أن يقتحمها المشركون، غير هيَّاب من تجرؤ المشركين باقتحامها عليه، أو تسديد قوس إلى نحره الشريف، وهو يعلم أنه هو المقصود بالذات، ولكن الشجاعة الكاملة الكامنة في قلبه لم تهب ذلك، بل حملته على هذا الإقدام، الذي لم يُعهد في قائد غيره ﷺ[2].

- إقدام وقوة:

لو رأيته يوم حنين، وقد فرَّقت إغارة العدو المفاجئة جيشه، ففر الناس عنه حين باغتتهم هوازن بسهامها المنهمرة، فثبت النبي ﷺ في وجه العدو، ونزل من على بغلته، وأخذ يرتجز، لعلمت أنه البطل المقدام، الذي لا تزعزعه مفاجآت العدو.

قال العباس رضي الله عنه: فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار[3].

وسُئِل البراء رضي الله عنه: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟! فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يَفِر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستُقبلنا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٢).

(٢) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة للحداد (٣/ ١٣٤١).

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٩٨) (١٧٧٥)، ومعنى يركض بغلته: أي يضربها برجله الشريفة على كبدها لتسرع.

وهو يقول:

أنـــا النبـــي لا كـــذب أنـــا ابـــن عبـــد المطلـــب

قال البراء: فما رئي من الناس يومئذ أشد منه(١).

قال في «سبل الهدى والرشاد»: (وهذا ما يكون في غاية الشجاعة التامة؛ لأنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة لا تصلح لكرٍ، ولا فرٍ، ولا هرب، ثم هو مع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوِّه باسمه ليعرفه من ليس يعرفه ﷺ)(٢).

نعم، لا يلزم من الشجاعة قوة البدن، فقد يكون الرجل شجاعاً في إرادته، وهمّته، لكنّه غير قوي البدن، والعكس صحيح.

ولذا فالذي جاء في «الصحاح» أن الشجاعة: (شدة القلب عند البأس)(٣).

وقد صاح النبي ﷺ بكلمة التوحيد بين أظهر المشركين، وقال أيضاً: «**أفضل الجهاد، كلمة حق عند سلطان جائر**»(٤).

غير أنه لا مرية أن الكمال أن يجتمع مع الشجاعة قوة البدن، لذا كان حبيبنا ﷺ على هذا الوصف، فقد أعطي قوة ثلاثين(٥)، ولم تكن حرب الأمس كحرب اليوم - حرب أزرار - وإنما كانت حرباً تعتمد بدرجة كبيرة على القوة الجسدية، واللياقة البدنية،

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٨١) (٢٨٦٤).

(٢) سبل الهدى والرشاد (٧/ ٧٨).

(٣) الصحاح للجوهري (٣/ ١٢٣٥)، والقاموس المحيط (ص٩٤٥).

(٤) أخرجه النسائي (٧/ ١٦١) (٤٢٠٩)، وغيره.

(٥) أخرجه البخاري، كما في الفتح (١/ ٤٤٩) (٢٦٨)، وعند غير البخاري قوة أربعين رجلاً، وذلك في البطش والجماع.

فالمسافات الطويلة في المعارك، لم تكن تقطع بالمراكب الآلية، وإنما على الأقدام والدواب، فتتقطع أقدامهم من طول المسير، وتنهك دوابهم من حرِّ الهجير، والقائد على وجه الخصوص يحتاج أن يكون في المقدمة أحياناً، وأحياناً في المؤخرة، وأحياناً بين ذلك، وهذا يحتاج إلى لياقة بدنية عالية، وقوة جسدية ظاهرة، وكان النبي ﷺ كذلك.

يقول جابر رضي الله عنه: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، قال: فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية، فعاد كثيباً أهيل[1].

قال ابن حجر[2] رحمه الله: (ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن، من حديث البراء بن عازب، قال: "لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة، لا نأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول، فقال: بسم الله، فضرب ضربة، فانكسر ثلثها، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة")[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٥٦) (٤١٠١)، ومعنى أهيل: أي صار رملاً لا يتماسك، ومنه قوله تعالى: ((وكانت الجبال كثيباً مهيلاً).

(٢) كما في الفتح (٧/ ٤٥٨).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٠٣).

- لا نامت أعين الجبناء:

الليل وقت قد يتسلل فيه الخوف إلى قلوب بعض الشجعان، لما يكتنف ذلك الظلام من الأخطار التي لا تراها العين، أما رسول الله ﷺ، فإن ذلك الخوف لا يعرف الطريق إلى قلبه..

في ذات ليلة فزع أهل المدينة، فانطلق ناس قِبَل الصوت، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُري[1]، في عنقه السيف، وهو يقول: «**لم تُراعوا، لم تُراعوا**»، ثم قال: «**وجدناه بحراً**»[2]، يعني الفرس: واسع الجري، على أنه كان قبل ذلك بطيئاً.

ولكأني بهذا المقطع من السيرة يحدثنا، فيقول: «لا نامت أعين الجبناء»، حقاً إن الشجاعة سبب من أسباب السعادة، تنشرح بها الصدور، ويقوى بها القلب، وتطمئن معها النفس، ويسلو بها الفؤاد.

بخلاف الجبناء، فلا يزال أحدهم مضطرباً حائراً، قد أخذ القلق منه كل مأخذ!! وما أروع ما قاله القاضي عياض رحمه الله عن الرسول ﷺ: (وأما الشجاعة والنجدة.. فكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفر الكُماة والأبطال عنه غير مرةٍ، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة سواه)[3].

---

(١) قال في النهاية: أي: لا سرج عليه ولا غيره (٣/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٤٢) (٢٨٢٠).

(٣) الشفا (١/ ١١٤).

بقي أن تعلم أن تلك الشجاعة التي استخدمها النبي ﷺ ضد أعداء الله في مواطن القتال، هي مظهر من مظاهر رحمته، إذ هو يجاهدهم، ليدخلوا في دين الله، فيفوزوا بخيري الدنيا والآخرة، وكان بإمكانه أن يدعو عليهم، كما دعت الأنبياء قبله فيهلكهم، لكن الرحمة المهداة ﷺ أبى ذلك، وقال: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»(١).

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٦٠) (٣٢٣١).

[٢]

قــوة التعلــق بـالله

لم يكن شيء أعظم في قلب النبي ﷺ من الله، ولذا كان سَمْتُه الذي لا يفارقه في الحرب كما هو في السلم؛ شدة تعلقه بالله، وتوكله عليه، والتضرع بين يديه، لأنه يعلم أن الفلاح بيده، والنصر بيده، ﷻ.

لكنه مع حصول الكرب والشدة، لا يسع المؤمن إلا أن يقترب من مولاه أكثر وأكثر؛ لأنه مفرج الكرب، ومزيل الشدائد.

ولذا نجد أن النبي ﷺ يلح على الله بالدعاء، لاسيما عند شدة القتال، فلا ننسى إن نسينا موقف النبي ﷺ يوم بدر حين رجع بعد تعديله الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك**»، حتى إذا حمي الوطيس، واستدارت رحى الحرب، واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمتها، قال: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد**»، وبالغ في الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

إن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد، ووفرة السلاح، إنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش وقائده، وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية، والإيمان المتقد، والفرح بالاستشهاد، والرغبة في ثواب الله وجنته، كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال، والفرقة والفساد، بينما كان جيش المشركين يمثل

---

(١) سورة القمر، آية (٤٥)، والحديث في البخاري، كما في الفتح (٦/ ١١٦) (٢٩١٥).

فساد العقيدة، وتفسخ الأخلاق، وتفكك الروابط الاجتماعية، والانغماس في الملذات، والعصبية العمياء للتقاليد البالية، والآباء الماضين، والآلهة المزيفة.

وانظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال، فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر على أن يقيموا ثلاثة أيام، يشربون فيها الخمر، وتغني لهم القيان، وتضرب لهم الدفوف، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا، فتهابهم[١]، وكانوا يظنون ذلك سبيلاً إلى النصر، بينما كان محمد ﷺ والمسلمون قبل بدء المعركة يتجهون إلى الله بقلوبهم، يسألونه النصر، ويرجون الشهادة، ويشمون روائح الجنة، ويخرُّ الرسول ﷺ ساجداً مبتهلاً، يسأل الله أن ينصر عباده المؤمنين، وكانت النتيجة أن انتصر الموحّدون، الأتقياء، الخاشعون، وانهزم اللاهون، العابثون.

• ويوم الأحزاب ناشد النبي ﷺ ربه، فدعا وقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[٢]، وحين شغله الأحزاب عن صلاة العصر، دعا عليهم، فقال: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**»[٣].

إنه يريد أن يبقى دائم التعلق بالله، لا يريد أحداً أن يشغله عن ذلك، فليت أبناء المسلمين – الذين يبحثون عن ما يشغلهم وقت الصلاة – يدركون ذلك!!.

بل نجد النبي ﷺ حافظ على الصلاة حتى قِبالة العدو، فشرع له ربه صلاة الخوف، بالصفة التي جاء ذكرها في القرآن، وجاءت بها الأحاديث الصحيحة.

وحينما يهدأ القتال، يفرح الجند، ليأخذوا قسطاً من الراحة، فأين رسول الله ﷺ؟!.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٠-١٩١) من كلام أبي جهل عدو الله.

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٢٤) (٢٩٣٣).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٢٤) (٢٩٣١).

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، يصلي ويبكي حتى أصبح)[١].

إنها دموع العبادة، تفعل فعلها في قلب الشجاع، حتى لا يبقى فيه خوف من قوةٍ مهما كانت، إلا من قوة من بيده ملكوت كل شيء، تلكم هي قوة ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[٢].

وحتى عند رجوعه ﷺ من الغزو يظل متعلقاً بربه، فيعمد إلى المسجد، فيصلي ركعتين، وكان يحث أصحابه على ذلك[٣].

- ذكر الله والتواضع له:

صبَّح النبي ﷺ خيبر، وقد خرجوا بالمساحي على أعناقهم، فلما رأوه قالوا: محمدٌ والخميس، محمد والخميس[٤]، فلجئوا إلى الحصن، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «**الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين**»[٥].

وهكذا ينبغي أن يكون القائد، ذاكراً لله، متفائلاً بنصره، ألا ترى أن النبي ﷺ حين رأى آلات الهدم بأيديهم تفاءل، فقال ما قال.

وكان النبي ﷺ وأصحابه في مسيرهم للمعارك، إذا صعدوا كبّروا، وإذا نزلوا سبّحوا[٦].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٢٥)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٠٢٣).

(٢) سورة يس، آية (٨٢).

(٣) كما في صحيح البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٢٣) (٣٠٨٧) (٣٠٨٨).

(٤) أي: محمد والجيش، كما في الفتح (٧/ ٥٣٥).

(٥) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٥٦) (٢٩٩١).

(٦) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٥٧) (٢٩٩٣).

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على واد هلَّلنا وكبّرنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنه سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جده**»(١).

ولما قَفَل رسول الله ﷺ من عُسفان، وأشرف على المدينة، قال: «**آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون**»، فلم يزل يقول ذلك حتى دخل المدينة(٢).

ولقد كان النبي الرحمة ﷺ يربي في جنده قوة التعلّق بالله، ويبين لهم رحمة ربهم، ويستفيد في ذلك من المواقف، وذلك أنه حينما قَدِمَ عليه سبي، وفيه امرأة من السبي، إذ وجدت صبياً في السبي، فأخذته، فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال النبي ﷺ: «**أترون هذه طارحة ولدها في النار؟!**»، قالوا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٣).

أما عن تواضع النبي ﷺ لربه ﷻ، فيكفي أن تعلم حاله عند النصر، ذلك النصر الذي يغري طلاب الدنيا من القادة العسكريين، فيحملهم على العربدة، وإقامة المآدب، والاحتفالات، وتُعلَّق الأوسمة، ويصفِّق لهم الجمهور، أما طلاب الآخرة، فيرون أن من أقوى مظاهر العبادة التواضع لله في هذا المقام، والتذلل له، والانكسار بين يديه.

وها هو القائد الفاتح محمد ﷺ يحرز أعظم نصر على أعتى قلاع الشرك في (مكة)، فيدخل مكة خاشعاً، متذللاً، وهو واقف على راحلته، وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله،

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٥٧) (٢٩٩٢).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٢٢) (٣٠٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (١٠/ ٤٤٠) (٥٩٩٩).

حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن عثنونه[١] ليكاد يمس واسطة الرحل[٢]، وهو يقرأ سورة الفتح[٣].

يقول ابن كثير رحمه الله: (وهذا التواضع في هذه المواطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل هذا الجيش العرمرم، بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أُمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود - أي: ركع - يقولون: حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة)[٤].

أما سيد المرسلين ﷺ، فقد دخل بهذا القدر العظيم من التواضع لله، ولم يتحدث عن نفسه، ولا عن شجاعته، أو عبقريته، وإنما أرجع الأمر كله لله، وقال: «**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[٥].

حتى أضحت هذه الكلمة العظيمة من التواضع سُنة يتردد بها الحاج والمعتمر بين الصفا والمروة، فيتذوق تواضع أعظم نصر عرفه البشر.

إن تواضع النبي ﷺ - عند دخوله مكة - لم يختلف كثيراً عن تواضعه عند دخوله المدينة، إذ كان من لم ير الرسول ﷺ من قبل يحيي أبا بكر ظناً منهم أنه رسول الله ﷺ، فلما اشتد الحر، قام أبو بكر، فأظل النبي ﷺ بردائه، فعرفوا الرسول ﷺ عند ذلك[٦].

---

(١) قال في النهاية: وفيه: "وفروا العثانين" هي: جمع عثنونة، وهي اللحية (٣/ ١٨٣).

(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٨٦).

(٣) وقراءة سورة الفتح، وهو على الناقة عند البخاري، كما في الفتح (٧/ ٦٠٦) (٤٢٨١).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٨٦).

(٥) ذكره ابن هشام في السيرة (٤/ ٤٠)، وابن القيم في الزاد (٣/ ٤٠٧)، وانظر: تخريج الأرناؤوط في الزاد لشواهد له (٣/ ٤٠٨).

(٦) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٢٨٢) (٣٩٠٦).

ألا إنه التواضع الأصيل، الذي لا يتغير حال النعمة والنصر، فينقلب إلى أشر وبطر، كما هو حال القادة غير المحمديين.

حُقّ لرسول الله أن ينتصر، وهو الذي يقول له أبو بكر - قبل دخول المدينة بأيام قلائل، وقبل وقوع أي معركة بينه وبين أعدائه، وكانا في الغار -: يا رسول الله، والله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا، فيقول الواثق بنصر ربه، حبيبنا محمد ﷺ: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»(١).

إنها قوة التعلق بالله وتعظيمه، التي نقلت رسول الله ﷺ من الغار إلى الانتصار.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٣٠٢) (٣٩٢٢) و(٨/ ١٧٦) (٤٦٦٣).

[٣]

التخطيط قبل الحــرب

لم يكن التوكل على الله، والثقة بموعوده يمنع رسول الله ﷺ من الأخذ بأسباب القوة، وطرائق النصر، ومدارج التمكين.

ولم يقرأ حرفاً واحداً من السيرة النبوية، من لم يدرك حرص محمد ﷺ على رسم الخطط، ووضع التدابير التي تكفل نجاح دعوته، أما من قرأ ذلك، فحُق له أن يقول: إن الأمة التي لا تستفرغ الجهد والطاقة في دقة التخطيط لتستحق أن تطأها الأمم الأخرى بأقدامها، وكذا شأن الفرد، ليس عن ذلك ببعيد!!.

وتأمل كيف أسرَّ النبي ﷺ بدعوته، ثم جهر بها، ثم أذن لمن يؤذى في سبيلها بالهجرة إلى الحبشة، ثم بحث لها عن مكان تترعرع فيه، فهاجر إلى المدينة، ثم أخذت قوته تنمو شيئاً فشيئاً، حتى عاد إلى مكة فاتحاً.

ولم يَمُتْ إلا وقد اطمأن أنه أسس مدرسة مشرقةً، راسخة القواعد، شامخة البنيان، لا تزال تشع نوراً وضياءً، وتفوح مسكاً وعطراً.

وما كان لتلك النجاحات أن تتحقق لولا إرادة الله، ثم ما حباه الله به من دقة التخطيط، وحسن التدبير، وكمال السياسة.

والحرب على وجه الخصوص يشكل التخطيط فيها عنصراً رئيساً، للنصر أو الهزيمة، فكان النبي ﷺ يفترض الذكاء في عدوه، فيحسب كل الاحتمالات، ويتوقع منه أسوأها، وكان يتخذ تدبيره على هذا الأساس.

- **الكتابة:**

كان النبي ﷺ يكتب من تعين أنه يخرج للجهاد، فقال: «**اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس**»، يقول حذيفة رضي الله عنه: فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل[١].

ولما جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني كتبت في غزوة كذا وكذا، وامرأتي حاجة، قال له: «**ارجع فحج مع امرأتك**»[٢].

وفي قوله: «**ارجع فحج مع امرأتك**» رحمة من النبي ﷺ بالرجل حين أذن له بالتخلف عن الغزو، ليحج مع امرأته، ويقدِّر هذا الإمام تبعاً للمصلحة حين يكون عدد الجند كثيراً، وكذلك رحمته بتلك المرأة، كما نستفيد منه أن الغزو الأخلاقي قد يكون أشد فتكاً بالأمم من الغزو العسكري!!.

إن تخطيط النبي ﷺ، لم يشغله عن أن ينظر بأفق أوسع وصدر أرحب إلى ذلك الرجل وامرأته، ليبقى هذا الحديث غُصة في حلوق دعاة تحرير المرأة الماجنين!!.

- **الكتمان والسرية:**

كما كان النبي ﷺ يكتم خططه وأسراره عند عدوه، فقلما يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها[٣].

ولا يخفى ما في كتمان السرّ وإخفائه عن الغير من فضائل الأخلاق وكريمها، لاسيما حين يكون سبباً للنجاح والصلاح، أو السلامة وحصول الظفر.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٠٦) (٣٠٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٠٦) (٣٠٦١).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٣٢) (٢٩٤٧).

ولما عزم رسول الله ﷺ على الخروج لعير أبي سفيان، الآيبة من الشام، لم يذع ذلك، وإنما قال للناس: «**إن لنا طَلَبَة، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا**»، فجعل رجال يستأذنون في ظهرانهم في علو المدينة، فقال: «**لا، إلا من كان ظهره حاضراً**»[١].

فلم يبين لهم وجهته في بادئ الأمر، حتى لا يتسرب الخبر إلى أبي سفيان، كما حدث بالفعل!! لحكمة أرادها الله رب العالمين.

ولما خرج النبي ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل[٢]، لئلا يسمع صوتها أبو سفيان ومن معه، فيفلتوا منه.

وحين نزل النبي ﷺ قريباً من بدر، أراد أن يعلم أخبار قريش، فركب بنفسه، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى وقف على شيخ من العرب، يدعى سفيان الضمَّري، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم - فتراه سأل الرجل حتى عن نفسه، كي لا يفطن الرجل إليه، فيذيع خبره - فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبران ممن أنتما؟! فقال ﷺ: إذا أخبرتنا، أخبرناك، قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدقني الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا؛ للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نحن من ماء**»، ثم انصرف عنه، فقال الشيخ: من ماء!! أمن ماء العراق؟![٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٠) (١٩٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ١٥٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٧٧): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٩٧): "وهذا على شرط الصحيحين".

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٩)، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٣٠٠)، وإمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ٨٣).

فنجد أن النبي ﷺ هنا لم يكذب، وإنما ورّى «**نحن من ماء**»، ففهم الشيخ أنها البلدة، وذهب ذهنه إلى التي في العراق، وأراد النبي ﷺ الحقيقة الجنسية، فإنهما من ماء، وهذا من المعاريض التي فيها مندوحة عن الكذب.

كما نجد حكمة النبي ﷺ وفطنته حيث سأله عن نفسه كي لا يفطن الرجل، كذلك أسلوب النبي ﷺ، حيث استطاع أن يأخذ منه ما يريد، حيث قال: «**إذا أخبرتنا أخبرناك**»، فقد يكون النبي ﷺ أضمر الإجابة في نفسه: «**نحن من ماء**»، كما نلحظ مبالغة النبي ﷺ في الاحتياط للكتمان الذي أراده، فانصرف فوراً لئلا يطلب الشيخ مزيد إيضاح عن البلدة فيحرجه، وهو يريد أن يعمي عنه خبره، حتى لا يؤتى من قبله[١].

- وفي فتح مكة:

لما أجمع النبي ﷺ أمره على فتح مكة، بالغ في الكتمان والسرّية في بادئ الأمر، حتى عن أقرب الناس إليه، وأحبهم له: زوجته عائشة وأبيها رضي الله عنهما، فإنه ﷺ أمر عائشة رضي الله عنها أن تجهزه، فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: "أي بنية: أأمركم رسول الله أن تجهزوه؟ قالت: نعم، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدري"[٢].

فلما رأى رسول الله ﷺ أن الوقت قد حان لإخبار الناس بوجهته، أخبرهم بوقت كاف ليتأهبوا لذلك، ودعا الله، فقال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها**»[٣].

---

(١) انظر: القيادة العكسرية في عهد الرسول ﷺ، لعبدالله الرشيد (ص٣٨٩).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٩)، وعند ابن كثير في البداية والنهاية بالإسناد (٤/ ٢٧٧).

(٣) الموضع السابق.

كما أخذ بوسائل الحيطة والكتمان، خشية أن يصل نبأ تحركه إلى قريش، فأمر جماعة أن تقيم بالأنقاب - وهي: الطرق - وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب، فيمر بهم، ويقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه[١].

كما بث دوريات خارج المدينة، وعلى حدودها؛ لحرمان قريش من الحصول على أية معلومات عن مقاصده[٢].

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب: (بهذا الكتمان استطاع الرسول ﷺ أن يحرك جيشاً كبيراً من عشرة آلاف مسلم لفتح مكة، دون أن تستطيع قريش معرفة وقت حركته، ولا نواياه، حتى وصل الجيش إلى ضواحي مكة، فاضطرت قريش على التسلم)[٣].

- جمع المعلومات:

إن معرفة أخبار العدو، وما يدور في أروقة صناع القرار، مما يساعد كثيراً في اتخاذ القرار المناسب لذلك.

كما يذكر الماوردي: أن على القائد أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها، ويتصفح أحواله حتى يُخبرها، فيسلم من مكره، ويلتمس الغِرَّة في الهجوم عليه[٤].

لذا نجد النبي ﷺ استطاع أن يباغت عدوه في مرات عديدة، على حين لم يستطع أعداؤه أن يباغتوه؛ لأن النبي ﷺ كان أكثر القادة حرصاً على جمع المعلومات، فكان يسعى لتوافر تلك المعلومات وترتيبها، وبناء الخطط وفق ذلك.

---

(١) سبل الهدى والرشاد للشامي (٥/ ٣١٧).

(٢) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد (ص٣٩٦).

(٣) الرسول القائد، لمحمود شيت خطاب (ص٣١٥).

(٤) الأحكام السلطانية، للماوردي (ص٣٩).

وسيرته حافلة ببث السرايا والعيون، التي تصل إلى أرض العدو لترصد تحركاتهم، وترقب طريقتهم، ومواضع مرورهم، لتوافيه بأنباء ذلك قبل أن يقدموا على تنفيذ ما لديهم من مخططات، ليعمل على إحباطها، لتكون تحركاته بعد ذلك على هدىً وبصيرة.

- أحد سرايا التحري:

وها هو بعد مقفله من بدر الأولى، يبعث عبدالله بن جحش في رجب من السنة الثانية للهجرة، مع ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، ويمضي لما أمره به، لا يستكره من أصحابه أحداً، فلما سار عبدالله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: «**إذا نظرت كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم**»، فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى، ومضى معه أصحابه، لم يتخلف منهم أحد[1].

فنجد في هذه السرية غير جمع المعلومات عن قريش، وكتمان المعلومات وسريتها، الانضباط الذي أكسبه رسول الله ﷺ جنده، وتحديد الموقع المناسب لمكان الرصد، ثم محبة جنده له - أيضاً - حيث مضوا، ولم يتخلف منهم أحد على أنه خيَّرهم في ذلك، ثم يُظلل ذلك كله رحمته بهم ﷺ، حيث لم يستكره منهم أحداً.

---

(١) أوردها ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ١٧٨)، وأخرجها البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ٢٠-٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٠١): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات".

فيا لله!! أي سموٍ وخُلق تريدنا أن نصل إليه شخصية ذلك القائد العظيم، ﷺ.

ولكم أن تعلموا أني احترت كثيراً في أي موضع - من هذا الكتاب - أضع هذه المقطوعة من السيرة، إذ أن كل عبارة فيها تدل على خلق أود الحديث عنه، ولكني أفتح المجال على مصراعيه لخيالكم الواسع، ليس في هذه السرية فحسب، بل في كل جزء مما كتبت... ولكن ما هي إلا إشارات واللبيب بالإشارة يفهم...

وهذه السرية التي قَتَل فيها واقد بن عبدالله التميمي رضي الله عنه عمرو بن الحضرمي في آخر يوم من شهر رجب، فقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

فلما أكثر الناس الكلام في ذلك، أنزل الله عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾[1].

بعد ذلك قال عبدالله بن جحش[2]:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دماً وابن عبدالله عثمان بيننا ... ينازعه غل من القد عاند[3]

---

(١) سورة البقرة، آية (٢١٧).

(٢) وهذا رأي ابن هشام كما في السيرة (٢/ ١٨١): أن عبدالله بن جحش هو الذي قال هذه الأبيات، وقيل أبو بكر الصديق، كما ذكر ذلك ابن إسحاق، كما نقله ابن هشام، ووجدت في الإصابة لابن حجر (٣/ ٦٢٨) أن الذي قاله عمر بن الخطاب، ولعل ما أثبت هو الأقرب، ويكون البقية قالوها تمثلاً.

(٣) القد: شرك الجلد، والعاند: السائل بالدم غير المنقطع، وذلك أنهم أسروا عثمان بن عبدالله.

- العيون والاستخبارات تكشف حركة العدو:

كان العباس بن عبد المطلب قبل غزوة أحد يرقب حركة قريش، واستعداداتها العكسرية، وقد جعله النبي ﷺ عيناً بمكة لهذا الهدف، فلما عزم الجيش المكي على التحرك، بعث العباس برسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

فأسرع رسول العباس - وهو رجل من بني غفار - بإبلاغ الرسالة، وجدَّ في السير، حتى أنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مسافتها خمسمائة كيلومتر - في ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ، وهو في مسجد قباء، فقرأها عليه أبي بن كعب، فاستكتمه إياه، ثم أخذ يبث العيون، ليوافوه بأخبارها أولاً بأول.

فبعث أنساً ومؤنساً - ابني فضالة الظفريين - ليلة الخميس، لخمس ليال مضت من شوال، لسنة ثلاث من الهجرة، بعثهما عينين على قريش، فاعترضا لقريش بالعقيق، وعادا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه بخبرهم، وأنهم قد خلُّوا إبلهم وخيلهم في الزرع الذي بالعُريض حتى تركوه ليس به خضراء، ثم بعث الحباب بن المنذر بن الجموح، فنظر إليهم وعاد، وقد حرز عددهم وما معهم، فقال له رسول الله ﷺ: «**لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول**»[1].

فالذي يعنينا هنا أن الرسول ﷺ كان يبعث العيون قبل تحركه بكثير، وأثناء ذلك، ليستمر تدفق المعلومات التي يكون التحرك على ضوئها.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٧)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٢٧٣)، والرحيق المختوم (ص٢٩٢)، وأخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة (٣/ ١٣٠٨).

[٤]

التخطيط أثناء الحــرب

على ضوء ذلك التحري والاستطلاع، وبناءً على ما سبق من جمع المعلومات ودراسة خطط العدو وإمكانياته، كان النبي ﷺ يرسم الخطة المناسبة لإدارة كفة الحرب؛ ليتحقق النصر بإذن الله، وكان يعتمد بشكل كبير على عنصر المفاجأة.

- المفاجأة:

ليست مفاجأة العدو محصورة في وقت الهجوم، ولذا نجد أن النبي ﷺ فتح آفاقاً جديدة من مفاجآت العدو، حتى لا تكاد تقع صورة للمفاجأة التي تستخدمها الجيوش اليوم، إلا وترى أن النبي ﷺ في غزواته قد سبقهم إلى مثلها أو شبيهاً بها.

ففي بدر الكبرى وحدها، فاجأ النبي ﷺ مشركي قريش بعدة مفاجآت، على أنه كان قد خرج للعير، ولم يخرج للقتال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[1]، لكنه حين علم بخروج قريش لنجدة أبي سفيان، **وضع خطط المفاجآت التالية:**

١- اختار رسول الله ﷺ بعد مشورة أصحابه موقعاً استراتيجياً في بدر، إذ عسكر، وجعل مياه جميع العيون خلفه، وفي حوزته، وغور القُلب والآبار، ثم بنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، وبهذا ضمن الماء لجنده، وجعل المشركين في حاجة إلى الماء، وتحت رحمة المسلمين، وهذا لم يكن في حسبان قادة المشركين!!.

---

(١) سورة الأنفال، آية (٤٢)، وانظر: تفسير ابن كثير عند هذه الآية (٣/ ٣٢٦).

٢- ثم فاجأهم عند ساعة الصفر في المعركة بمفاجأة أخرى، أثَّرت في قدرتهم على القتال، فأضعفتهم، وجعلت المسلمين الجانب الأقوى، وذلك باختيار الموقع الملائم من القتال، إذ كان قتالهم في أول النهار، فأخذ النبي ﷺ الجهة الشرقية، على حين كان عدوه في الجهة الغربية، فكانت أشعة الشمس عند الصباح في أعين المشركين، وظهور المسلمين.

ومن المعلوم.. أن أشعة الشمس تضعف قوة الإبصار، إذا كانت في العيون، وهذا ما حدث بالفعل، إذ ضعفت قوة الإبصار عند جنود المشركين، وعشت عيونهم عن رؤية خصومهم، فأصبحوا فريسة سهلة لسيوف المسلمين، ورماحهم ونبلهم[١].

٣- كما فاجأهم بأسلوب جديد في القتال، لم يكونوا يألفونه، وهو أسلوب الصف والترتيب، حيث بُهت عدوه به، إذ لم يكن يعرف إلا أسلوب الكرِّ والفر، الذي اتبعته قريش في تلك الغزوة.

فكان ذلك سبباً من أسباب انتصار الرسول ﷺ الساحق على عدوه، (لأن أسلوب الصفوف يمتاز على أسلوب الكر والفر، أنّ صفوف مقاتليه تبقى في مواضعها بسيطرة قائدها، حتى يفقد زَحَم المهاجمين بالكر والفر شدته، عند ذاك تتقدم الصفوف متعاقبة للزحف على العدو، ويمتاز بأنه يؤمن الترتيب بالعمق، فيبقى دائماً بيد القائد قوة احتياطية، يعالج بها ما يطرأ من المواقف التي ليست بالحسبان، كأن يصد هجوماً مباغتاً للعدو، أو يضرب كميناً، أو يحمي الأجنحة التي يهددها العدو بفرسانه أو بمشاته، ثم يستمر الفوز بالاحتياط من الصفوف الخلفية عند الحاجة.

---

(١) انظر: عارضة الأحوذي لابن العربي المالكي (٧/ ١٧٤).

بينما أسلوب الكر والفر يجعل القائد يفقد السيطرة، ولا يؤمن له أي احتياط للطوارئ، لذلك كان تطبيق الرسول ﷺ لأسلوب الصفوف في معركة بدر عاملاً مهماً من عوامل انتصاره على المشركين)[١].

لذلك امتدح الله هذا الأسلوب بمحبة أهله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[٢].

- وفي أُحد:

لما أجمع النبي ﷺ الخروج إلى أحد، اختط خطة محكمة للقضاء على براثن الشرك والوثنية، حيث باغتهم في المسير إليهم ليلاً، فما طلع الصبح إلا ورسول الله ﷺ وأصحابه قد أخذوا مواقعهم للقتال، بحيث لم يستطع الكفار إحراز عددهم وعدتهم.

ثم جعل مفرزة من جيشه تعدادهم خمسين رام في جبل خلفهم؛ ليحموا ظهور المسلمين، ليأمن التفاف العدو، وأعطاهم أمراً صارماً، يدل على فقه كبير في دقة التوقع؛ إذ قال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»[٣].

وبفضل الله تعالى، ثم بفضل هذا التخطيط المحكم، كان النصر ساحقاً في الجولة الأولى لجند النبي ﷺ، إلى درجة أن تلك المفرزة من الرماة حملها هذا الانتصار الساحق أن تتخلى عن مواقعها، وتتأول أمر رسول الله ﷺ بالبقاء على الجبل، بحصول النصر

---

(١) انظر: الرسول القائد لمحمود شيت خطاب (ص٨٥)، والعبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ، لمحمد فرج (ص٣٠٦)، وأخلاق النبي في القرآن والسنة، لحداد (٣/ ١٣٠٧)، والمدرسة النبوية العسكرية، لمحمد أبو فارس (ص١٧٢).

(٢) سورة الصف، آية (٤).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٨٨) (٣٠٣٩).

وقد تحقق، وأن فائدة البقاء هناك قد انتهت، فنزلوا يغنمون، ولم يبق في الجبل إلا أميرهم، ونفر قليل ممن استجابوا لأمر أميرهم إياهم بالبقاء، وهو يدل على حسن اختيار النبي ﷺ لهذا الأمير.

فكان هذا التخلي عن تخطيط رسول الله ﷺ ومعصية أميرهم، سبباً للإدالة عليهم، وانقلاب النصر إلى هزيمة مُرة، إذ التفَّت خيالة المشركين على جيش رسول الله ﷺ من وراء ظهره، واستطاعت أن تقتحم البقية الباقية من الرماة، وتجهز عليهم، وأن تأتي جيش الرسول ﷺ، وهو مشغول بمن يقابله من الأعداء، فأثخنت الخيالة فيهم قتلاً وجرحاً[1].

لقد كان التخطيط المحكم لرسول الله ﷺ في هذه المعركة سبباً للنصر في بدايتها، وكان الإخلال بذلك التخطيط سبباً للهزيمة، ليبقى ذلك الدرس العملي القاسي لكل مسلم، يوازي التخلي عن أمر رسول الله ﷺ، إذ هو يؤدي إلى ذات النتيجة المرّة من قلة التوفيق، وسوء العاقبة، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[2]، وهكذا تكون نتيجة التخلي عن التخطيط.

- **وفي الأحزاب:**

ضربت قريش والقبائل والأحزاب الموالية لها موعداً لحرب رسول الله ﷺ، وحددوا لذلك الزمان والمكان، وكان لليهود في المدينة يد طولى في ترتيب أوراق تلك المعركة!!.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٨)، وسبل الهدى والرشاد، للشامي (٤/ ٢٨٦)، والرحيق المختوم، للمباركفوري (ص٣٠٨)، وأخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، لحداد (٣/ ١٣٠٩).

(٢) سورة النور، آية (٦٣).

إلا أن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة، تتجسس الظروف، وتقدر ما يتمحض عن مجراها، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير.

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشاري أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على قرار قدمه الصحابي الجليل سلمان الفارس رضي الله عنه حيث قال: (يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس، إذا حوصرنا خندقنا علينا)[1].

وحيث أنها كانت خطة حكيمة، لم تكن تعرفها العرب، قَبِل النبي ﷺ بذلك.

وفي ذلك دليل: على أن الإسلام لا يضيق ذرعاً بالاستفادة مما عند الأمم الأخرى من تجارب تفيد الأمة، وتنفع المجتمع في الحرب وغيرها.

فأسرع إلى تنفيذ هذا التخطيط، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعاً[2].

والذي كان طوله خمسة آلاف ذراع أي حوالي (٢٣١٠ متر)، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة إلى عشرة أذرع[3].

حتى كان دور جيش المسلمين بعد ذلك يتمثل في حراسة هذا الخندق، أن لا ينفذ من خلاله أحد من الأحزاب.

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٢/ ٦٦)، ونقله عن أصحاب المغازي ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٤٥٣).

(٢) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري (ص٣٥٧).

(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، لمهدي رزق (ص٤٤٦)، والرسول العربي وفن الحرب (ص١٩٤).

حتى إذا ما أقبلت قريش ومن تبعها، صُدمت بذلك التدبير السديد، والتخطيط المحكم الذي بهر الأعداء المتحزبين، واحتوى هجومهم الغاشم، الذي بيَّتوه للمسلمين!!.

• كما كان النبي ﷺ يضع جميع الاحتمالات الممكنة في ساحة المعركة، ويضع الحلول المناسبة لها، فها هو حين بعث الأمراء إلى مؤتة، ليأخذوا بثأر من قُتل هناك من المسلمين، فأمَّر على الناس زيد بن حارثة مولاه ﷺ، وقال: «**إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة**»[١].

وكذلك وضعه كلمات للتعارف بين الجند، فيوم بدر كان شعارهم "أَحد.. أَحد"، ويوم أُحد "أَمِتْ"، وهكذا كي لا يقع قتل الخطأ.

- حماية القيادة:

من المعلوم أن سهام الأعداء تتوجه عادة إلى القائد؛ لأنه الذي يدير رحى الحرب، ويأمر الجند، ولذا فإن من مقتضيات الحذر التي يمليها العقل أن يحمي القائد نفسه، بل ويعين من يحرسه.

وهنا نجد أن النبي ﷺ يوم أحد ظاهر بين درعين[٢]، فكان لذلك الأثر في رد هجمات العدو، وضرباته الموجعة!!.

أما حراسته نفسه الشريفة ﷺ، فقد كان يقوم بها جماعة من أصحابه طواعية من أنفسهم، أو بتكليف منه ﷺ، ففي يوم بدر حرسه أبو بكر الصديق، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، وفي يوم أحد حرسه محمد بن سلمة، وجماعة من الأنصار رضي الله عنهم، وفي يوم

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٥٨٣) (٤٢٦١).

(٢) كما أخرج ذلك ابن ماجه (٢/ ٩٣٨) (٢٨٠٦)، وغيره، وإسناده صحيح.

الخندق حرسه الزبير بن العوام رضي الله عنه، وليلة مقفله من خيبر حرسه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

وجاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَرِق النبي ﷺ ذات ليلة، فقال: «**ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة**»، قالت: إذ سمعنا صوت السلاح، فقال ﷺ: «**من هذا؟**»، قال: سعد يا رسول الله، جئت أحرسك، قالت: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعنا غطيطه[1].

وإنما كان ﷺ يُعنى بحراسة نفسه، ويأذن لأصحابه بها، أو يأمرهم بذلك؛ لأنه قائد الأمة، والأعداء إنما جاءوا لينالوا منه، وهو يحمل همّ تبليغ هذه الرسالة، وليشرع للقادة بعده أمر حراستهم.

حتى إذا ما اطمئن لأمر الدين، ووعد الله تبارك وتعالى بحفظه، قال للناس: «**انصرفوا، فقد عصمني الله**»، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحرس، حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[2]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبّة، فقال لهم: «**أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله**»[3].

كما أن القيادة ينبغي أن تكون بيد رجل واحد، ولذا كان النبي ﷺ يقود بنفسه، ولم تكن ثمة قيادة مزدوجة؛ لأن ذلك سبب من أسباب الاختلاف، وتضارب الآراء، لاسيما في الحرب.

ولم يؤثر عنه قط أنه أمّر أميرين في وقت واحد على سرية واحدة، ولا يخفى ما في ذلك من الحكمة، إذ أن وحدة القيادة أصل من أصول الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (١٣/ ٢٣٢) (٧٢٣١).

(٢) سورة المائدة، آية (٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٨/ ٣٢٦) (٣٢٣٨)، والإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣١٣)، وصححه، ووافقه الذهبي.

[٥]

التخطيط بعد الحــرب

حتى حين تضع الحرب أوزارها، لا تتخلى خطط رسول الله ﷺ عن أسرارها، فلربما واصل النبي ﷺ القتال حين يرى المصلحة في ذلك.

- فطنة وملاحقة:

حين ألحقت قريش بالمسلمين الهزيمة في الجولة الثانية من معركة أحد، انصرف قائدها أبو سفيان ومن معه، وهو ينادي: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد، فعندها بدأت القوات المشركة بالعودة.

لكن النبي ﷺ أراد أن يتأكد، فأرسل دورية استطلاع برجل واحد، هو علي بن أبي طالب - وقد أعطاه دلالات العملية - حيث قال له: اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها، لأسيرين إليهم فيها، ثم لأناجزنهم، قال علي: فخرجت في آثارهم، أنظر ماذا يصنعون، فوجدتهم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا مكة[1].

يا له من استنتاج رائع؛ إذ استدل بحالهم وركوبهم على وجهتهم!!.

ولم يزل الرسول ﷺ حذراً من رجوع الجيش المكي إلى المدينة؛ لأنه كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، فلا بد أن يندموا على ذلك، فيرجعون لغزو المدينة مرة ثانية!!.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٨).

- غزوة حمراء الأسد:

عندها صمم النبي ﷺ بعد أُحد على مطاردة الجيش المكي، فنادى في الناس، وندبهم إلى المسير للقاء العدو، على ما فيه وفيهم من جراح ونصب.

وكان ذلك صباح الغد من معركة أحد، وقال: لا يخرج معنا إلا من شهد القتال، وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، فعسكروا هناك.

وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، ويقال: بل كان على شركه، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله ﷺ، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الحلف.

وهنا استفاد النبي ﷺ من هذا الرجل - معبد الخزاعي - فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله.

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ - من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة - إلا حقاً، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

وخالف في ذلك صفوان بن أمية، قائلاً: يا قوم، لا تفعلوا، فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف عن الخروج - أي: من المسلمين في غزوة أحد - فارجعوا، والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم، لكن رأي صفوان رُفض أمام رأي الأغلبية الساحقة، التي ترى المسير نحو المدينة مرة أخرى.

وقبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه نحو المدينة، إذ بمعبد بن أبي معبد الخزاعي يصله، ولم يكن أبو سفيان يعلم بإسلامه، أو بما كان بينه وبين النبي ﷺ، فقال له: ما وراءك يا معبد؟!.

فقال معبد - وقد شن عليه حرباً إعلامية نفسية -: محمد، قد خرج في أصحابه، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط!!.

قال أبو سفيان: ويحك، ما تقول؟!.

قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، أو حتى يطلع الجيش من وراء هذه الأكمة!!.

عندها أسقط في يد أبي سفيان، وخارت قوى الجيش المكي، وانهارت عزائمهم، فرأوا أن العافية في انسحابهم ورجوعهم إلى مكة!![1].

إن غزوة حمراء الأسد - تلك - كانت هي الصفحة الأخيرة لغزوة أحد، أراد الرسول ﷺ أن يحقق من خلالها نصراً سياسياً بعد نكسة أحد، ليثبت أن النصر الذي حققته قريش في أحد لم يكن نصراً ساحقاً، وأن الدولة الإسلامية لا زالت تملك من قواتها الضاربة ما تستطيع به مواجهة العدو، وأن انتصار قريش في أحد لم يضعف معنويات جند المسلمين.

لقد نجح النبي ﷺ في هذه الغزوة السياسية الاستخباراتية التخذيلية أن ينقذ هيبة الدولة الإسلامية، دون وقوع الصدام مع العدو[2].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٤)، والرحيق المختوم، للمباركفوري (ص٣٣٤).

(٢) قراءة سياسية للسيرة النبوية، لمحمد رواس (ص١٥٩، ١٦٠).

فأنت حين تعزل هذه الصفحة الأخيرة من المعركة، يمكن لك أن تقول: إن معركة أحد انتهت بهزيمة مُني بها المسلمون، لكنك حين تضم هذه الصفحة التي حوت غزوة حمراء الأسد، تتراجع في هذا الوصف، وتشيد بحكمة هذا القائد الفذ، الذي استطاع أن يقلب الهزيمة إلى نصر، يفر منه الأعداء!!.

- استثمار الانتصار:

كما استطاع النبي ﷺ معالجة الهزيمة، حقق نظرية "استثمار النصر"، فعندما انتهت غزوة الخندق، وأصبح رسول الله ﷺ، انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة، ومعه المسلمون، ووضعوا السلاح!! أتاه جبريل عليه السلام، فقال: أَوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟! قال: نعم، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم، فمزلزل بهم[1].

عندها أمر الرسول ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس، من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة[2].

فتابع النبي ﷺ هذا الانتصار بانتصار آخر في بني قريظة.

• ولقد كان للانتصار الذي أحرزه الرسول ﷺ في مكة حين فتحها الله عليه أثر كبير في نفوس المؤمنين، وفي نفوس الكافرين، فما أن سمعت هوازن وثقيف بسقوط مكة بيد رسول الله ﷺ، حتى أخذت تعد العدة لحربه، فهاجم رسول الله ﷺ تجمعهم، وكان ما كان في حنين من نصب الكمائن في قمم الجبال، ورمي جيش رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٧) (٢٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٧١) (٤١١٩)، وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٤٠).

بالنبال، ولكن الرسول ﷺ بشجاعته وحنكته استطاع أن يجمع الناس في حنين بعد تفرقهم، ويهزم العدو، ثم يتابع إلى أوطاس، حيث أوقع بهم خسائر جسيمة، ثم تابع فلول العدو المنهزمة إلى الطائف[١].

- نصر الرحمة:

قد يبدو العدو منهزماً، فيُظهر الاستسلام والضعف، فيشعر عندها القائد المنتصر أن الحرب قد انتهت، وأنه لا فائدة من بقائه، فيركب راجعاً بالجيش، فيباغته العدو، وينقض عليه، ليحول نصره إلى هزيمة!!.

فكان النبي ﷺ متفطن لذلك، ولذا كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة - وهي البقعة الواسعة بغير بناء - ثلاث ليال[٢].

قال ابن الجوزي: (إنما كان يقيم ليظهر تأثير الغلبة، وتنفيذ الأحكام، وقلة الاحتفال، فكأنه يقول: من كانت فيه قوة منكم فليرجع إلينا)[٣].

وهذه الطريقة فيها الرحمة بالجند، لينالوا قسطاً من الراحة بعد عناء المعركة، كما فيها الرحمة بالعدو - أهل البلد - حيث لم يقم في دورهم وطرقاتهم، وإنما في هذا المكان الواسع، الذي ليس فيه بناء، ثم هو لم يمكث طويلاً، وإنما ثلاث ليال، لا كما تفعل دول الاستعمار اليوم، حين تستوطن سنين طويلة، وتستذل الناس، وتجعل العزيز ذليلاً، والحقير أميراً!!.

---

(١) دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ، لمحمد رواس (ص٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٠٩) (٣٠٦٥).

(٣) انظر: فتح الباري (٦/ ٢١٠).

وشأنهم في ذلك شأن الملوك الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾[1].

أما الأنبياء فلا!!، لأن قتالهم قتال العدل والرحمة!!.

وكان النبي ﷺ إذا عاد منتصراً، أرسل من يزف البشرى للمسلمين، كما أرسل زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة - بعد انتصاره في بدر - ليزفا البشرى لأهل المدينة[2].

ولا يخفى ما في البشرى من إدخال السرور، والفرح على قلوب من زُفت إليهم!!.

حقاً!! إنها الرحمة التي وسعت العدو، كما وسعت الجند، وكانت وفيَّة، إذ لم تنس الأهل، فحملت إليهم بشائر النصر!!.

---

(١) سورة النمل، آية (٣٤).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٧).

[٦]

النـزاهة وشرعية الحــرب

كانت الحرب في نظر رسول الله ﷺ وسيلة، وليست غاية، فالحرب عنده لضمان مسيرة الدعوة إلى الله، ونشر العدل، ولذلك اتصفت حربه بأنها حربٌ إنسانية، لا تستهدف إراقة الدماء، ولا إذلال الرقاب، كما هو واضح من سيرته، ومن وصاياه للجند.

وحينما تقرأ في أسباب غزواته واحدة بعد الأخرى، تجد أنها أسباباً منطقية، عقلية، شرعية، يمليها الحق، ويحميها الضمير، ويفرضها الواقع.

- أسباب الغزوات:

إننا حين نقرأ صفحة الغزوات التي كانت خلال عشر سنوات بالمدينة، ينبغي أن لا نُغْفِل صفحة السلم التي كانت قبلها بمكة، وهي ثلاث عشرة سنة، ماذا فعل المشركون بها؟!.

إنهم أخرجوا النبي ﷺ، ومن تبعه من مكة - بلدهم - بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله، بعد ما أُوذوا في دينهم وأموالهم وأبنائهم، إلى أن يصل الأمر بهم أن تآمروا على قتل رسول الله ﷺ، فكانت الهجرة إلى المدينة، حيث الأنصار والأتباع...

لم تنته مطاردات المشركين، وسوء أدبهم مع رسول الله ﷺ وأتباعه، فظلت أشبه - إن صح التعبير - بـ (الحرب الباردة) بين معسكر الرسول ﷺ وأصحابه في المدينة، ومعسكر المشركين ومن حالفهم في مكة، فكان من الطبيعي والمنطقي أن كلا الطرفين يريد أن يكسب هذه الحرب لصالحه، فكان النبي ﷺ يحاول قطع الإمداد الاقتصادي

عن مكة، وذلك بالاعتراض لقوافلها القادمة من الشام، وهي التي اعترضت لدينه ومبادئه وأتباعه، وتحاول إلحاق الضرر والأذى بهم في كل حين.

وقد واتته فرصة ذهبية لا تُقدَّر بثمن، تلكم هي عير قريش القادمة من الشام، بقيادة أبي سفيان، فأراد النبي ﷺ أن يعترض لها، ولم يكن يريد القتال، إلا أن أبا سفيان علم بتحرك الرسول ﷺ، فأرسل على الفور لقريش يطلب الإمداد العسكري، فتحفز الناس سراعاً، فخرج الجيش المكي بقيادة أبي جهل، وقوامه نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس، وستمائة درع، وجمال كثيرة، حتى إنهم كانوا ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الإبل!!.

على حين كان عدد المسلمين ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم إلا فرسان، وسبعون بعيراً يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، ولم يكونوا قد أخذوا أهبتهم للقتال، ولم يخرجوا له، ولا أدل على ذلك من عددهم واستعدادهم، ولذا لم يَلُم النبي ﷺ أحداً تخلف عن هذه الغزوة.

حتى إذا ما نقلت استخبارات جيش المدينة خبر قريش، بعيرها ونفيرها، وتأكد ذلك لديه، لم يبق مجال لاجتناب لقاء دام، لا بد فيه من تقديم الشجاعة والبسالة والقوة، وقبل ذلك وبعده الاستعانة بالله العظيم.

إذ لو ترك النبي ﷺ جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة، لبسطت قريش نفوذها السياسي، وضعفت كلمة المسلمين، بل ربما أصبحت بعد ذلك جسداً لا روح فيه، فكان ما كان في (بدر) من المعركة التي سماها الله يوم الفرقان!! حيث انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً، وهزم فيها المشركون هزيمة نكراء!!.

أما العير التي يقودها أبو سفيان، فقد نجت، وكان قوامها ألف بعير، وخمسون ألف دينار، فلما وصلت إلى مكة احتجزها قادتهم، ليذكروا الناس بهذه الهزيمة، ويجعلونها وقوداً لشن حرب أخرى!!.

وهذا ما حدث بالفعل حينما خرجت قريش في العام القادم - ومعها حلفاؤها الأحابيش، ومعهم هذه العير، وزادوا عليها حتى أصبح مجموعها ثلاثة آلاف بعير - صوب المدينة، فكان ما كان في معركة (أحد)، فوقع فيها ما وقع.

بعد ذلك هدأت الجزيرة العربية أكثر من سنة، إلا أن اليهود داخل المدينة كانوا يتحرقون غيظاً وحقداً وحنقاً على رسول الله ﷺ، وهذه عادة اليهود مع الأنبياء، ودعاة الحق، والخير في كل زمان ومكان!!.

فتآمر اليهود بحبك مخطط رهيب، ووضعوا أيديهم بأيدي قريش في مكة، بل أخذوا يطوفون على القبائل الأخرى، فاستجاب لهم غطفان وقبائل أخرى، حتى تجمعت تلك الأحزاب، وضربت لها موعداً للخروج للمدينة، وفي هذه الأثناء نقلت استخبارات المدينة الخبر إلى مركز القيادة، فكان ما كان من حفر (الخندق)، ومجيء هذه الأحزاب التي قوامها عشرة آلاف مقاتل!!.

(بدر) موقع ماء بينه وبين المدينة سبعة بُرُد[١].

ثم (أحد) جبل بينه وبين المدينة قرابة ميل في شمالها[٢].

ثم (الخندق) حصن أرضي، يحيط بالمدينة مباشرة!!.

---

(١) انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي (١/ ٣٥٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٠٩).

إذن ها هو الخطر يقترب صوب المدينة عاماً بعد عام، بدر، ثم أحد، ثم الخندق على أبواب المدينة!!.

والخطر لا بد أن يزال، فلا يلام رسول الله ﷺ - بعد ذلك - حين يغزوهم!!، ولذا قال بعد الخندق: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**»(١).

ثم كان ما كان في (الحديبية)، وأبرم معهم صلحاً نقضوه، فكان لرسول الله ﷺ الشرعية الكاملة - في كل القوانين والأعراف - لمهاجمتهم، حيث كان بعد ذلك (فتح مكة)، الذي حمل فيه النبي ﷺ راية العفو، وأعلن فيه الصفح والمسامحة!! فأي نزاهة أجلُّ وأعظم من ذلك؟!!.

وحين تطوف بعينيك إلى بقية الغزوات والسرايا، والبعوث النبوية، تجد أنها إن لم تكن دفاعاً عن النفس، كانت انتصاراً من الظلم والقهر، أو ملاحقة للغدر والخيانة، أو محاسبة لنقض العهود، وتمزيق الهدنة والصلح، أو رداً لهجوم بات وشيكاً!!.

- الهدف المعلن:

تقوم الدول المتسلطة بشن حروب تعلن لها أهدافاً شريفة، يدرك الجميع كذب تلك الأهداف، وأن ثمة أهدافاً حقيقية غير معلنة!! لسوئها وقبحها لم تعلن!!.

أما في غزوات النبي ﷺ، فهو يعلنها صريحة، لا مرية فيها ولا تردد ولا خفاء، فيقول: «**أُمرت أن أقاتل الناس..**»، والغاية من وقوع المقاتلة، قال: «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٦٧) (٤١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (١/ ٩٤) (٢٥).

ولا يُفهم من هذا الحديث إكراه الناس على الدخول في دين الإسلام، وإنما أراد النبي ﷺ أن يبين سمو الهدف، ونبل الغاية، وكأنه يقول: إن الذي أمرني بالقتال هو ربي، فأنا أقاتل لله بأمر الله، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له.

وفي مسند الإمام أحمد: «**إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى...**»[١].

قال ابن حجر رحمه الله: (قال ابن دقيق العيد: لا يلزم من إباحة المقاتلة إباحة القتل؛ لأن المقاتلة مفاعلة، تستلزم وقوع القتال من الجانبين، ولا كذلك القتل، وحكى البيهقي عن الشافعي أنه قال: ليس القتال من القتل بسبيل، قد يحل قتال الرجل، ولا يحل قتله)[٢].

وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (وقد ظن بعضهم أن معنى الحديث: أن الكافر يقاتل حتى يأتي بالشهادتين، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، وجعلوا ذلك حجة على خطاب الكفار بالفروع، وفي هذا نظر، وسيرة النبي ﷺ في قتال الكفار، تدل على خلاف هذا..)[٣].

ومن تعظيم النبي ﷺ لله، والتزامه بالهدف، أنه كان إذا غزا قوماً لم يُغر عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذاناً وإلا أغار عليهم[٤].

وكان إذا بعث جيشاً أو سرية، يقول لهم: «**إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم مؤذناً، فلا تقتلوا أحداً**»[٥].

---

(١) المسند (٥/ ٢٤٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٩٦)، وانظر: شرح الشيخ محمد بن عثيمين للأربعين النووية (ص١٤٧).

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٢٣٠).

(٤) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٢/ ١٠٧) (٦١٠).

(٥) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٥/ ١٣٠) (١٥٨٩)، وغيره.

وإليك هذا الحديث، الذي يؤدب فيه النبي ﷺ أمته، ويعطيهم درساً مركزاً مكرراً، يحمل في طياته وضوح الهدف، وثبات المبدأ.

يقول أسامة بن زيد رضي الله عنهما: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم، فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، قال: فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، فقال لي: «**يا أسامة، أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!**»، قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً، قال: «**قتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟**»، قال: فما زال يكرِّرها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1].

ولما جاء ذلك الرجل يسأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فَمَنْ في سبيل الله؟! قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»[2].

حقاً.. لقد ألغى نبي الرحمة جميع أسباب الملاحم الدنيئة الأرضية، التي يتطاحن من أجلها البشر، وجعله سبباً واحداً، وكلمة عليا، ترتفع شفافةً خفاقة، لتشير إلى السماء!!. فيسجد الناس بها، ويعفرون جباههم بالتراب، لا لمحمد!!، ولكن لمن بعث محمداً ﷺ... ذلكم الله رب العالمين...

- الزهد في الدنيا:

(مخيريق) اليهودي النضري، كان من أحبار اليهود، أسلم حين علم صدق الرسالة، وقال لليهود لما خرج النبي ﷺ إلى أُحد: ألا تنصرون محمداً؟ والله إنكم

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٥٩٠) (٤٢٦٩).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٣) (٢٨١٠).

لتعلمون أن نصرته حق عليكم، فقالوا: اليوم يوم سبت، فقال: لا سبت، وأخذ سيفه، ومضى مع النبي ﷺ، فقاتل حتى أثبتته الجراح، فلما حضره الموت، قال: أموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، وكانت سبعة بساتين، فجعلها النبي ﷺ صدقة[١].

• ولما سار النبي ﷺ إلى حنين بعد فراغه من فتح مكة، بعث إلى صفوان بن أمية، فسأله أدرعاً - مائة درع - وما يصلحها من عدتها، فقال صفوان: أغصباً يا محمد، فقال: «**بل عارية مضمونة، حتى نؤديها إليك**»[٢].

لقد كان صفوان من الضعف والهوان بحيث لا يقوى على فرض الشروط على رسول الله ﷺ، يدل على ذلك قوله للرسول ﷺ - حين طلب منه ذلك - أغصباً يا محمد؟!.

ولو أراد النبي ﷺ أن يأخذها منه غصباً لاستطاع، ولَمَا قَدِرَ صفوان أن يقول شيئاً، ولكن هدي النبوة في النصر، ومعاملة المغلوبين، والعفف عن أموالهم بعد أن تنتهي المعركة ويلقوا السلاح؛ كان أكبر مثال للنبل والرحمة!!.

يقول حماد بن إسحاق في تركة النبي ﷺ: (كان رسول الله ﷺ على هذه الحال، صابراً على عبادة الله تعالى، واتباع طاعته على الضر والجوع، والزهد في الدنيا، ثم فتح الله له الفتوح في آخر عمره، فصارت له أموال، منها أموال مخيريق اليهودي،...، ومنها ما فتح الله عليه مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب... إلى أن قال: ولم يستأثر رسول الله ﷺ بشيء من الأموال، ولا اعتقد ذلك لنفسه، ولا لابنته، بل كان قصده لأمر الآخرة، والزهد في الدنيا ورفضها والإعراض عنها.

---

(١) الإصابة، لابن حجر (٣/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٨)، من حديث جابر، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وهو عند أبي داود من حديث صفوان بن أمية، وصححه الألباني، كما في إرواء الغليل (٥/ ٣٤٤) (١٥١٣).

وكذلك كان اختياره لفاطمة ﵂ ترك الدنيا، والزهد فيها، حتى لم يعطها خادماً من السبي الذي أتاه مع ما شكت هي وعلي ﵄ من شدة الحاجة إلى ذلك، بل وكلهم إلى التسبيح والتحميد...[١].

ويقول الماوردي ﵀: (هذا وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار العراق، ومن أقصى اليمن إلى بحر عُمان، وهو أزهد الناس فيما يقتنى ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر، لم يخلف عيناً، ولا ديناراً، ولا حفر نهراً، ولا شيَّد قصراً، ولم يورث لولده وأهله متاعاً ولا مالاً، ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا، كما صرف نفسه عنها، فيكونوا على مثل حاله في الزهد فيها)[٢].

يقول صاحبه عمر بن الحارث ﵁: (ما ترك النبي ﷺ، إلا سلاحه، وبغلة بيضاء، وأرضاً بخيبر، جعلها صدقة)[٣].

وتقول زوجته عائشة ﵂: (توفي رسول الله ﷺ، ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعاً من شعير)[٤].

تلك الدرع التي ألفت النبي ﷺ تحدث العالم من دار اليهودي، لتقول لهم: انظروا أيها القادة، واسمعوا أيها الملوك، ها هو القائد العظيم، والنبي المرسل يموت، ويتركني على آصع من شعير لم يستطع ردها!! كم قاتل بي؟! وكم فتح الفتوح؟! وقد كان بإمكانه - لو أراد - أن يملك الدنيا بأسرها، لكنه أبى إلا التعفف والنزاهة!!.

---

(١) تركة النبي ﷺ، لحماد بن إسحاق الجهضمي الأزدي (ص٧٨-٩٠).

(٢) أعلام النبوة، للماوردي (ص٢٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١١٤) (٢٩١٢).

(٤) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١١٦) (٢٩١٦).

فرضي من الدنيا بزاد الراكب، فعاش حياته سعيداً حميداً، غير عابئ بتكاليف الحياة، ولا ملتفت إلى زهرة الدنيا ومتاعها الفاني!!.

- **(فتعالين أمتعكن وأسرحكن)**:

أدعكم الآن مع أديب وبليغ، ليس بالذي يخفى قلمه، أو يغيب بيانه، ذلكم هو الأديب مصطفى صادق الرافعي في كتابه: "وحي القلم"، إذ يقول: (قالوا: إنه لما نصر الله تعالى رسوله وردَّ عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه ﷺ أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، وكن تسع نسوة: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وزينب، وجويرية، فقعدن حوله، وقلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، والإماء والخَوَل، ونحن ما تراه من الفاقة والضيق... وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما تُعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخييرهن في فراقه.

وذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾[1].

قالوا: وبدأ ﷺ بعائشة - وهي أحبهن إليه - فقال لها: «**إني ذاكراً لك أمراً، ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك**»، قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك أستأمر أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله.

---

(١) سورة الأحزاب، آية (٢٨-٢٩).

ثم تتابعن كلهن على ذلك[١]، فسماهنّ الله "أمهات المؤمنين" تعظيماً لحقهن، وتأكيداً لحرمتهن، وتفضيلاً لهن على سائر النساء.

هذه هي القصة كما تُقرأ في التاريخ، وكما ظهرت في الزمان والمكان، فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرت في الإنسانية العالية، فسنجد لها غوراً بعيداً، ونعرف فيها دلالة سامية، ونتبين تحقيقاً فلسفياً دقيقاً للأوهام والحقائق.

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا، تنطوي على حكمة رائعة، لم يتنبه لها أحد، ومن أجلها ذُكرت في القرآن الكريم، لتكون نصاً تاريخياً قاطعاً، يدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر العقل والغريزة، فإن جهلة المبشرين في زماننا هذا، وكثيراً من أهل الزيغ والإلحاد، وطائفة من قِصار النظر في التحقيق، يزعمون أن محمداً ﷺ إنما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة، وشهواتٍ كالشهوات، ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي، وكلّهم غبي جاهل، فلو كان الأمر على ذلك أو قريب منه، أو نحواً من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة، وتجريد نسائه جميعاً منها، وتصحيح النية بينه وبينهن على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحت جو لا يكون أبداً جوَّ الزَّهر.. وأمره من قبل ربه أن يخيرهن جميعاً بين سراحهن، فيكن كالنساء، ويجدن ما شئن من دنيا المرأة، وبين إمساكهن، فلا يكنَّ معه إلا في طبيعة أخرى، تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها.

فالقصة نفسها رد على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، ولا سياسة معانيها..

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٨/ ٣٧٩) (٤٧٨٥).

وبرهان آخر، وهو أن النبي ﷺ لم يتزوج نساءه لمتاع مما يمتع الخيال به، فلو كان وضع الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلا بالزينة، وبالفن الناعم في الثوب والحلية والتشكل، كما نرى في الطبيعة الفنية، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا في المسرح المهيأ بمناظره وجوِّه.. وقد كان نساؤه ﷺ أعرف به، وها هو ذا ينفي الزينة عنهن، ويخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها، فهل ترى في هذه صورة فكرٍ من أفكار الشهوة؟!، وهل ترى إلا الكمال المحض؟ وهل كانت متابعة الزوجات التسع إلا تسعة برهانات على هذا الكمال؟!.

وكأن النبي ﷺ يُلقي بهذه القصة درساً مستفيضاً في فلسفة الخيال، وسوء أثره على المرأة في أنوثتها، وعلى الرجل في رجولته، وأن ذلك تعقيد في الشهوات، يقابله تعقيد في الطبع، وكذب في الحقيقة، ينشأ عنه كذب في الخُلق، وأنه صرف للمرأة إلى حياة الأحلام والأماني والطيش والبطر والفراغ، وتعويدها عادات تفسد عاطفتها، وتضيف إليها التصنع، فتضعف قوتها النفسية القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها.

وكل محاسن المرأة هي خيالُ متخيِّل، ولا حقيقة لشيء منها في الطبيعة، وإنما حقيقتها في العين الناظرة إليها، فلا تكون امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتون بها ليس غير، ولو ردت الطبيعة على من يُشبِّبُ بامرأةٍ جميلة فيقول لها: هذه محاسنك، وهذه فتنتك، وهذا سحرك، وهذا وهذا، لقالت له الطبيعة: بل هذه كلها شهواتك أنت.. وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر، فلا يفتن الأعمى جمال الصورة، ولا سحر الشكل، ولا فراهة المنظر، وإنما يفتنه صوت المرأة، ومَجَسَّتها، ورائحتها.

فلا حقيقة في المرأة إلا المرأة نفسُها، ولو أخذت كلُّ أنثى على حقيقتها هذه لما فسد رجل، ولا شقيت امرأة، ولانتظمت حياةُ كل زوجين بأسبابها التي فيها، وذلك هو المثل المضروب في القصة.

يريد النبي ﷺ ليعلم أمته أن حيف الغريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها، كانت حياتها استجابة لجنون الرجل، وملأتها معاني التزيُّد والتصنع، فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال، ويردّها إلى أضداد هذه الصفات... إلى أن قال: وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة:

بحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة، وإن لم يجد حقيقة كسرى ولا قيصر)[1].

حقاً... إن أخلاقه الحربية العظيمة هتفت بشؤون المجتمعات لتصلحها... وأيم الله لقد فعلت!!.

---

(١) وحي القلم، لمصطفى صادق الرافعي (١/ ٣٤١-٣٤٦)، بتصرف بغية الاختصار.

[٧]

عــدل الحليم

قامت السموات والأرض بالعدل والقسط، وهو خُلق عظيم، أمر الله به مع الإحسان، وأثنى على أهله، وذكر أنه أقرب للتقوى، وما ذاك إلا لأنه سبب رضا الجميع - بعد رضا الله تعالى -، وبه يكون نجاح الأعمال.

وإن المنتصر حقاً لهو الذي تبقى مبادئه السامية، وقيمه النبيلة، سمة بارزة في حروبه، وحين نريد أن نقرأ عن هذا الخلق (العدل) في شخصية النبي ﷺ في غزواته، نبدأ من حيث بدأ النبي ﷺ، حينما يريد الخروج إلى الغزو، فيقرع بين نسائه، فأيتهن يخرج سهمها خرج بها[١].

إن (القرعة) تحمل معناً رائعاً من معاني العدل، حيث أسقط النبي ﷺ حق نفسه بالاختيار، وجعل ذلك لأمر خارجي.

ولما كان حرص النبي ﷺ على إقامة العدل بهذه المثابة، كان استياؤه عظيماً من ذلك الأعرابي الجلف المسمّى بذي الخويصرة التميمي، حينما أتى إلى النبي ﷺ، وهو يقسم مالاً بعثه علي بن أبي طالب من اليمن، فقال له هذا الأعرابي: يا رسول الله، اعدل. فقال النبي ﷺ: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟! قد خبتُ وخسِرتُ إن لم أكن أعدل**»[٢].

إذ كيف لا يعدل؟! وهو الذي ائتمنه الله على وحيه، وخلقه، وزكاه بعظيم الأخلاق، وكريم الشيم والشمائل، وطهره من حب الدنيا ودنس الرذائل؟!.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٩١) (٢٨٧٩).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٤٣٣) (٣٣٤٤) و(٦/ ٧١٤) (٣٦١٠).

ولذا كان النبي ﷺ يقسم المال على أكمل وجوه العدالة، فلم يكن يحرم منه أحداً يستحقه، ولا يعطي من يستحق فوق ما يستحقه، بل كان يقسم بينهم بالسوية، ولذا رتب العقوبة المغلظة على من أخلَّ بهذه العملية، فغلَّ من الغنيمة، وإن كان شيئاً يسيراً، ولما مات كِركِرَة الذي كان يمسك بدابة النبي ﷺ في القتال، قال النبي ﷺ: «**هو في النار، فذهبوا ينظرون إليه، فوجودا عباءَة قد غلَّها**»(١).

وكان من عدله في القسمة، أنه كان يعدل العشرة من الغنم ببعير(٢).

ومن صور عدله: أنه كان يرد الحقوق إلى أهلها، فقد ذكر ابن عمر رضي الله عنهما أنه ذهب فرس له، فأخذه العدو، فظهر عليه المسلمون، فَرُدَّ عليه في زمن رسول الله ﷺ، وأبق عبد له فلحق بالروم، فظهر عليهم المسلمون، فرده عليه خالد بن الوليد بعد النبي ﷺ(٣).

ومن صور عدله في التدريب للحرب: أنه فرَّق في السباق بين الخيل المُضمَّرة والتي لم تضمر(٤)، قال ابن عمر رضي الله عنهما: سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التي ضمرت، فأرسلها من الحيفاء، وكان أَمَدُها ثنية الوداع، وكان بينهما ستة أميال أو سبعة، وسابق بين الخيل التي لم تضمَّر، فأرسلها من ثنية الوداع، وكان أمدُها مسجد بني زريق - وكان بينهما ميل(٥).

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢١٦) (٣٠٧٤).

(٢) ذكره البخاري تعليقاً، كما في الفتح (٦/ ٢١٠).

(٣) ذكره البخاري تعليقاً، كما في الفتح (٦/ ٢١٠) (٣٠٦٧).

(٤) قال في النهاية (٣/ ٩٩): تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتاً لتخف، وقيل: تشد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رَهلُها ويشتد لحمها.

(٥) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٨٤) (٢٨٧٠).

وتتلازم مع صورة العدل هذه صورة من صور الرحمة بالحيوان، حيث قدَّر النبي ﷺ كل خيل، وما يناسبها، فلم يكلفها ما لا تستطيع!!.

ومن تمام عدله ﷺ: أنه كان ينتصف للناس حتى من نفسه، فها هو لما كان يعدِّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قِدح[١] يعدل به القوم، فمرّ بسوَّاد بن غزيَّة حليف بني عدي بن النجار، وهو مستنتل[٢] من الصف، فطعن في بطنه بالقِدح، وقال: «**استو يا سوَّاد**»، فقال: يا رسول الله وجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «**استقد**»، فاعتنقه فقبّل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سوَّاد؟**» قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً[٣].

يا لها من صورة عظيمة، يظهر فيها العدل والإحسان، والرحمة والمحبة، التي كانت تؤثر في أصحابه، ليبلغوا شأواً لم يبلغه أحد!!.

- قوم يُشرون بالإيمان، وقوم يُشرون بالجمال:

قد يضطر القائد أن يتصرف تصرفاً يخرج فيه عن المألوف، أو يخالف به سَنَن القياس، لمصلحة عليا يراها، حتى يُظنُّ أنه منع الخير عمن يُظنُّ بأن له حقاً فيه، وفي هذه الحالة لا بد له من بيان وجه المصلحة في تصرفه، هذا لمن تضرروا من هذا التصرف، ولا بد من تطييب قلوبهم؛ لأن كسب القلوب هو أثمن ما يحصل عليه القائد، وقد كان رسول الله ﷺ يفعل هذا ويحرص عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام ما

---

(١) قال في لسان العرب (٢/ ٥٥٦): القدح: بالكسر، السهم قبل أن ينصل ويراش.

(٢) أي متقدم، كما في النهاية (٥/ ١٣)، والروض الأنف (٣/ ٤٦).

(٣) أخرجه ابن إسحاق بإسناده، كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٥)، وذكره ابن كثير في البداية (٣/ ٣٠٧).

أن يلاحظ تذمراً أو عدم رضىً من شعبه لموقف من المواقف، حتى يسرع لبيان حقيقته وكشف حكمته[١].

فها هو النبي ﷺ بالجعرانة بعد فتح مكة، وحصار الطائف، يعطي المؤلفة قلوبهم من الغنائم عطايا جزلة، وأنصبة وافرة، حتى أعطى سفيان بن حرب مائة من الإبل، وأربعين أوقية، فقال: ابني يزيد؟! فأعطاه مثلها، فقال: ابني معاوية؟! فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها، وأعطى صفوان بن أمية من الإبل مائة، ثم مائة، وأعطى الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرها مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين، وأربعين أربعين، حتى شاع بينهم وبين الناس: أن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر!!.

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً ومائة شاة[٢].

إن هذه السياسة لم تفهم أول الأمر، فأُطلقت ألسنة شتى بالاعتراض، وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة، لقد حرموا جميعاً أعطية حنين، وهم الذين نُودوا وقت الشدة، فطاروا يقاتلون مع الرسول ﷺ حتى تبدل الفرار انتصاراً، وهاهم يرون أيدي الفارين ملأى، وأما هم فلم يُمنحوا شيئاً قط[٣]، حتى قال قائلهم: لقد لقي رسول الله ﷺ قومه!!.

---

(١) انظر: دراسة تحليلية لشخص الرسول، لمحمد رواس قلعة جي (ص٢٠٩).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٠١)، وزاد المعاد، لابن القيم (٣/ ٧٣)، والرحيق المختوم (ص٤٩٨)، والشفا، للقاضي عياض (١/ ١١٢)، والدرر لابن عبدالبر (ص١٧٢).

(٣) انظر: فقه السيرة، لمحمد الغزالي (ص٢٩٨).

روى ابن إسحاق بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله!! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي، قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة!!**»، قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يا معشر الأنصار! ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجدةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، وأعداءً فألف الله بين قلوكم**»، قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثم قال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**»، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ورسوله المنُّ والفضل، قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ من الدنيا، تألفت بها قوماً ليُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده، لما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً، لسلكتُ شعب الأنصار ووديها،**

الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»[(١)].

وما هو إلا أن سمع الأنصار ما قال رسول الله ﷺ بفصاحته وبيانه، حتى رسموا - بسرعة البرق - صورةً ذهنيةً لما قاله رسول الله ﷺ: «**قوم يُشرون بالإيمان، يقابلهم قوم يشرون بالجمال**»، و«**قوم يصحبهم رسول الله، يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير**»، فتوقظهم تلك الصورة من إغماءة فكرية كانوا فيها، ورسول الله ماثل أمامهم، فيدركون أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فتنطلق حناجرهم بالبكاء، ومآقيهم بالدموع، حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا...

- أخلاقيات المقطع:

لا يمكن أن يمر هذا المقطع من السيرة على المسلم، فلا يهز وجدانه، بل تحتشد - عند قراءته - في الصدر مجموعة من المشاعر، تهتف بالأخلاقيات والفضائل التي تحلى بها هذا القائد الفذ ﷺ، **وإليك طرفاً منها:**

١ - العدالة الربانية التي نهجها ﷺ مع المؤلفة قلوبهم، إذ كان النبي ﷺ يرى أن هداية هؤلاء إلى الإسلام، ومن ثمَّ أقوامهم، أعظم المكاسب التي يمكن تحقيقها، وهو الذي كان قد قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أعطاه الراية يوم خيبر: «... **فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمر النعم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٧٦)، من طريق ابن إسحاق، وبإسناده أخرجه ابن هشام في سيرته (٤/ ١٠٥)، وصحح إسناده الأرناؤوطان في تحقيقهما للزاد (٣/ ٤٧٤)، وهو عن أبي سعيد الخدري، وهو عند البخاري عن أنس، انظر: الفتح (٦/ ٢٨) (٣١٤٦) مع الأطراف.

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٥٤٤) (٤٢١٠).

فكانت عطاياه وقسمته مبنية على سياسة حكيمة، فإن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليها فمها، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر، تحتاج إلى فنون الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له.

٢- النزاهة والزهادة في الدنيا، وعدم الجشع والطمع، إذ كان بإمكان النبي ﷺ أن يأخذ هذه الأموال فيقسمها بينه وبين أصحابه الذين قاتلوا معه، وهو الغالب المنتصر، أما وقد أعطاها من كان يقاتلهم، وحرم جيشه منها، فقد أثبت للعالم: أن القتال كان من أجل مبادئ عظيمة وقيم نبيلة، لا من أجل لُعاعة من الدنيا.

٣- الكرم والسخاء الذي لمسه البعيد والقريب، والقاصي والداني، حتى بات الجميع يقول بصوت واحد: إن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر والفاقة.

٤- حسن التصرف والتعامل مع الموقف من حين دخل عليه سعد بن عبادة، ومخاطبته إياه، ثم جمعه للأنصار إلى أن تفرقوا على أتم القناعة وغاية الرضا.

٥- الفصاحة والبيان التي تُميز القائد الناجح، حين يتحدث مع جنده، فيستطيع أن يصور ما في نفسه أروع تصوير، إلى درجة تبلغ به أن يُبكِّيهم حتى يُخضَل لحاهم ببديع خطابه، وصدق لهجته، ولا غرو، فإنه الصادق المصدوق الذي أوتي جوامع الكلم.

٦- الحلم والصبر واحتمال الأذى، فإنه رسول من عند ربه، ثم هم يقولون فيه هذه المقالة: "إنه وجد قومه وأهله، فأخذ يعطيهم، ويغدق عليهم، ويؤثرهم علينا"، "يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم"، إنها سياط لاذعة، لولا سياج النبوة الذي بُني على الصبر والحلم.

٧- عظيم الوفاء الذي كان يتحلى به ﷺ، إذ أثبت الفضل للأنصار، ولم يتجاهل فضائلهم، أو يتناسى جميل صنيعهم، بل قال لهم: «**أما والله لو شئتم لقلتم فلصدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مُكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك**»، ثم يقول: «... **ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً، لسلكت شعب الأنصار ووديها، الأنصار شعار، والناس دثار**»!!.

٨- الرحمة الغامرة التي تناولت من كانوا يؤذونه، ويتمنوا قتله، وهم المؤلفة قلوبهم حين ساقهم بالمال لدخول الجنة، ولم تترك تلك الرحمة جنده الأنصار، حين دعا لهم بالرحمة، فقال: «**اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**»، أي قيادة هذه؟!! فيا ترى هل رأيت سياسياً في الدنيا رقى في سياسته الشعوب المرقى الذي رقاه خير الورى ﷺ؟!!...

- بين حاطب وذو الخويصرة:

بين حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وذو الخويصرة التميمي أبعد مما بين المشرق والمغرب، يدركه رسول الله ﷺ، بحفظه لجميل حاطب، ويد له في الإسلام ندية، أما ذو الخويصرة، ففاتح باب فتنة، ومشرع شأن بدعة، يقول ابن القيم رحمه الله: (فتأمل قوة إيمان حاطب، التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ، وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته، وهم بين ظهراني العدو، وفي بلدهم، ولم يثن ذلك عنان عزمه، ولا فل حد إيمانه، ومواجهته للقتال لمن أهله وعشيرته وأقاربه عندهم، فلما جاء مرض الجس، برزت إليه هذه القوة، وكان البُحرانُ صالحاً، فاندفع المرض، وقام المريض، كأن لم يكن به قَلَبة، ولما رأى الطبيب قوة إيمانه قد استعلت على مرض جسه، وقهرته، قال لمن أراد فصده: لا يحتاج هذا العارض إلى فصاد «**وما يدريك لعل**

الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»، وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي، وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم في الصلاة، والصيام، والقراءة، إلى حد يحقر الصحابة عمله معه، كيف قال فيهم: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»، وقال: «**اقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم**»، وقال: «**شر قتلى تحت أديم السماء**»، فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة، مع تلك المواد الفاسدة المهلكة، واستحالت فاسدة)[1].

إنه حقاً العدل والحلم، قد بُنيا على البصيرة والحكمة!!.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٢٦-٤٢٧).

[٨]
الحرب خَدعــة!!

لم أستطع التعبير لمجموعة كبيرة من أخلاقيات الحرب بأفضل مما عبر عنه النبي ﷺ، حين قال - بكلمة مختصرة -: «**الحرب خدعة**»[(١)]!!.

كلمين فقط، جمعت فنون الحرب وآدابها!!.

على أن كلمة خدعة لها - أيضاً - عدة لغات، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وقوله: «**خدعة**» بفتح المعجمة، وبضمها مع سكون المهملة فيهما، وبضم أوله وفتح ثانية. قال النووي: اتفقوا على أن الأولى أفصح، حتى قال ثعلب: بلغنا أنها لغة النبي ﷺ، وبذلك جزم أبو ذر الهروي، والقزاز، والثانية ضبطت كذلك في رواية الأصيلي، قال أبو بكر بن طلحة: أراد ثعلب أن النبي ﷺ كان يستعمل هذه البنية كثيراً لوجازة لفظها، ولكونها تعطي معنى البنيتين الأخيرتين، قال: ويعطي معناها أيضاً الأمر باستعمال الحيلة مهما أمكن، ولو مرة، وإلا فقاتل؛ قال: فكانت مع اختصارها كثيرة المعنى، ومعنى خدعة - بالإسكان - أنها تخدع أهلها، من وصف الفاعل باسم المصدر، أو أنها وصف المفعول كما يقال: هذا الدرهم ضرب الأمير أي: مضروبه، وقال الخطابي: معناه أنها مرة واحدة، أي: إذا خدع مرة واحدة لم تقل عثرته، وقيل: الحكمة في الإتيان بالتاء للدلالة على الوحدة، فإن الخداع إن كان من المسلمين، فكأنه حضهم على ذلك ولو مرة واحدة، وإن كان من الكفار فكأنه حذرهم من مكرهم ولو وقع مرة واحدة، فلا ينبغي التهاون بهم لما ينشأ عنهم من المفسدة، ولو قل، وفي اللغة الثالثة صيغة المبالغة كهُمزة، ولُمزة، وحكى المنذري لغة رابعة بالفتح فيها، قال: وهو جمع خادع، أي: أن أهلها بهذه الصفة، وكأنه قال: أهل الحرب خدعة، قلت: وحكى مكي

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٨٣)(٣٠٣٠)، ومسلم (٣/ ١٣٦١) (١٧٣٩).

ومحمد بن عبدالواحد لغة خامسة، كسر أوله مع الإسكان، قرأت ذلك بخط مغلطاي، وأصل الخدع إظهار أمر، وإضمار خلافه، وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب، والندب إلى خدع الكفار، وإن لم يتيقظ لذلك، لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، قال النووي: واتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان، فلا يجوز، قال ابن العربي: الخداع في الحرب يقع بالتعرض وبالسكين ونحو ذلك، وفي الحديث: الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة، ولهذا وقع الاقتصار على ما يشير إليه بهذا الحدث، وهو كقوله: «**الحج عرفة**»، قال ابن المنير: معنى الحرب خدعة، أي: الحرب الجيدة لصاحبها، الكاملة في مقصودها، إنما هي المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر»[(١)].

- نعيم بن مسعود وتخذيل العدو:

ذكر الواقدي أن أول ما قال النبي ﷺ: «**الحرب خدعة**» في غزوة الخندق[(٢)]، قلت: لعله يقصد ما جاء في قصة نعيم بن مسعود.

تقول القصة: أن نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني أسلم ليالي الخندق، وجاء إلى النبي ﷺ معلناً إسلامه، وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له النبي ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد، ولكن.. خذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة**»[(٣)].

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ١٨٣)، وقد نقلته بطوله لقوة مناسبته وغزارة فوائده.

(٢) كما نقله عنه ابن حجر في الفتح (٦/ ١٨٣).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/ ٣٦٨) مرسلاً عن ابن المسيب، والواقدي (٢/ ٤٨٠)، وابن إسحاق - معلقاً - كما عند ابن هشام (٣/ ١٣٧).

وبتوجيه النبي ﷺ، خرج نعيم حتى أتى بني قريظة - وكان لهم نديماً في الجاهلية - فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمدٍ وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن كان النصر أخذوا الغنائم، وإن كانت الهزيمة لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين محمد!! ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم، يكونون بأيديكم حتى يكونوا معكم حتى النهاية!!.

فقالوا له: قد أشرت بالرأي.

ثم خرج من عندهم وأتى قريشاً، فقال لهم: قد عرفتم وُدِّي لكم، وفرقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر، فرأيت حقاً عليَّ أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاكتموا عني، فقالوا، نفعل.

قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين - قريش وغطفان - رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم؟! ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟! فأرسل إليهم: أن نعم!!، وأنا أنصحكم يا معشر قريش، إن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش!!.

فلما أرسل أبو سفيان قائد الأحزاب إلى بني قريظة يطلب بدء القتال، والهجوم على المدينة، قالت بنو قريظة: لن نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون

بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً!!. فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب ونالت منكم، واشتد عليكم القتال، أن تنسحبوا إلى بلادكم وتتركونا، ومحمد في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه!!.

فلما رجعت الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود الحق، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع لكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود الحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انسحبوا إلى بلادهم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان مرة أخرى: والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً، فأبى القوم، فخذَّل الله بينهم.

لقد وظف النبي ﷺ هذا الحدث، وهو إسلام نعيم بن مسعود، الذي كان يكتم إيمانه، مثلما وظف من قبل - في غزوة حمراء الأسد - إسلام معبد بن أبي معبد الخزاعي.

وتأمل كيف استطاع نعيم بن مسعود، وهو رجل واحد، أن يزود قريش وغطفان بمعلومات موهومة عن بني قريظة، ويزود بني قريظة بمعلومات عن قريش وغطفان، أدت إلى خديعة العدو، وتصديع جبهته القتالية، وغرس بذور الشقاق والاختلاف، ثم تفرق الأحزاب وهزيمتهم!!.

إنه الجندي الذكي، حين يستفيد من توجيه القائد الأعظم ﷺ: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة**».

- الحنكة العسكرية:

يشير هذا الحديث إلى ما ينبغي أن يكون عليه القائد من الحنكة العسكرية، والفطنة الحربية، فكثيراً ما تكون الخديعة في الحرب أكبر تأثيراً، وأبلغ نكاية بالعدو من المواجهة، أو استخدام القوة فحسب!!.

ولا تكاد عليك غزة من الغزوات، إلا وتلمس قوة العقل ورجاحته في نبينا المصطفى ﷺ، وإليك هذه الصورة التي يتسابق فيها العقل مع الرحمة!!.

بعث النبي ﷺ يوم بدر علياً وسعداً والزبير رضي الله عنهم يلتمسون الخبر عن قريش، فقدموا بعبدين لقريش، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فسألهما أصحابه: من أنتما؟! قالا: نحن سعاة لقريش، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما - أي: أجهدوهما - قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال: «**إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقاً والله إنهما لقريش**»، ثم أقبل عليهما، فقال: أخبراني عن قريش؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب، الذي تراه بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف[1]!!.

فانظر إلى دقة الاستنباط، وإحسان المعاملة، ورحمة هذين العبدين!! لقد عرف النبي ﷺ عدد القوم عن طريق طعامهم، وعدد ما ينحرون!!.

• وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من عدوه في غزوة بني المصطلق، تزاحم رجلان أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين على الماء، فاستغل ذلك ابن سلول، وأوقد

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٨٩)، وأصل القصة في صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٣) (١٧٧٩).

ناراً للفتنة بين المهاجرين والأنصار، فقال - وهو جالس في قومه -: أَوَ فعلوها، قد نافرونا، وكاثرونا في بلادنا - يريد المهاجرين -، والله ما نحن وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل... ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم[1]، فاشتعلت الفتنة، واستطار شررها حتى كادت أن تقسم الناس إلى كتلتين متحاربتين، لكن النبي ﷺ أخمد نيرانها بحكمة نادرة منقطعة النظير، حيث أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يؤذن بالرحيل على الفور، في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، وأمرهم بالمسير، فمشى بهم يومهم ذلك حتى أمسى، وتابع المشي حتى أصبح، وتابع المشي في اليوم الثاني حتى الضحوة الكبرى، دون أن يمكنهم من الاستراحة، فنسي الناس الفتنة، واشتغلوا بأنفسهم، ولم يعد لهم حديث إلا التعب!!.

لقد كان النبي ﷺ - كذلك - يربي في جنده الحكمة والفطنة، دونما ظلم أو بهتان...

- الحجاج بن علاط السلمي:

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر، قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله! إن لي بمكة مالاً، وإن لي بها أهلاً، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حِلّ إن أنا نلت منك؟ أو قلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ على أن يقول ما شاء!!.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٢)، وأصل القصة في صحيح البخاري، في كتاب المناقب، باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية، كما في الفتح (٦/ ٦٣١) (٣٥١٨).

فأتى امرأته حين قدم، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري غنائم محمد ﷺ وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، وأصيبت أموالهم، وفشا ذلك بمكة، فانقمع المسلمون بمكة، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، فبلغ الخبر العباس بن عبد المطلب، فقعد وجعل لا يستطيع أن يقوم، فأخذا ابناً له يشبه رسول الله ﷺ يقال له قُثم، فاستلقى فوضعه على صدره، وهو يقول:

حِبي قثم.. شبيه ذي الأنف الأشم.. نبيّ ربٍّ ذي النعم.. برغم أنف من رغم.

ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج بن علاط: ماذا جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به، قال: فقال الحجاج بن علاط: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فَليَخلُ في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، قال: فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار، قال: أبشر، يا أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً، حتى قبَّل بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه، قال: ثم جاءه الحجاج، فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله - تبارك وتعالى - في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية ابنة حُيي، فأخذها لنفسه، وخيّرها بين أن يعتقها وتكون زوجته أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته، ولكني جئت لما كان لي هاهنا، أردت أن أجمعه، فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لي أن أقول ما شئت، وأخفِ عني - يا أبا الفضل - ثلاثاً، ثم اذكر ما بدا لك، قال: فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع، فدفعته إليه، ثم انشمر به - أي: أسرع - فلما كان بعد ثلاث، أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه قد ذهب يوم كذا وكذا، وقالت - وكانت لا تعلم شيئاً -: لا يخزيك الله يا أبا الفضل! لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل فلا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله تبارك وتعالى خيبر على رسول الله ﷺ، وجرت سهام الله تعالى في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن

كان لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقاً، قال: فإني والله صادق، والأمر على ما أخبرتك، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، فيقول: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر فتحها الله على رسوله ﷺ، وجرت سهام الله فيها، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي ثلاثاً، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما له من شيء هاهنا، ثم يذهب!!.

فرد الله - تبارك وتعالى - الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ممن كان دخل بيته مكتئباً، حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر، وسر المسلمون، وردّ الله ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين[1].

فنلاحظ هنا كيف أذن النبي ﷺ للحجاج أن ينال منه، وأن يخادع المشركين، بإعطائهم معلومات مضللة في سبيل تحصيل حقه وماله، وتوخى الدقة في ذلك إلى درجة أن زوجته لم تعلم بما كان ينوي، فما علمت إلا ما علمه المشركون في مكة، وما ذاك إلا لأن الحرب خدعة، وليست الخدعة مقصورة على أن يكون ثمة قتال!!.

ثم تأمل رحمة النبي ﷺ بصفية حين خيرها بين أن يعتقها ويتزوجها، أو أن تلحق بأهلها، وأنَّى لمثلها رضي الله عنها أن تختار إلا مثله، بأبي هو وأمي ﷺ.

- الكذب في الحرب:

يدرك الجميع أن ساحة الحرب - حين تقع - ليست كأسواق المدينة حين تفتح أبوابها، ومن وسائل الخدعة ابتكار الحيل، واستخدامها مع العدو، كما فعل الحجاج بن علاط، وربما احتاج ذلك إلى لون من ألوان الكذب الذي يحرز حقاً ونصراً، ولا يوقع جوراً وظلماً وغدراً.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/ ٤٦٦)، ومن طريقه أحمد في المسند (٣/ ١٣٨)، وإسناده صحيح.

ولذا شرع النبي ﷺ الكذب لأمته حال الحرب، على أنه لم يتعاطى شيئاً من ذلك الكذب البتة، فقال ﷺ: «**لا يحل الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس**»(١).

قال النووي رحمه الله: (قال القاضي عياض: لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور، واختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها ما هو؟ فقالت طائفة: هو على إطلاقه، وأجازوا قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة، وقالوا: الكذب المذموم ما فيه مضرة، واحتجوا بقول إبراهيم ﷺ: بل فعله كبيرهم، وإني سقيم، وقوله: إنها أختي، وقول منادي يوسف ﷺ: أيتها العير إنكم لسارقون، قالوا: ولا خلاف أنه لو قصد ظالم قتل رجل هو عنده مختف وجب عليه الكذب في أنه لا يعلم أين هو، وقال آخرون - منهم الطبري -: لا يجوز الكذب في شيء أصلاً، قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا المراد به التورية، واستعمال المعاريض، لا صريح الكذب، مثل أن يعد زوجته أن يحسن إليها، ويكسوها كذا، وينوي إن قدر الله ذلك.

وحاصله: أن يأتي بكلمات محتملة يفهم المخاطب منها ما يطيب قلبه، وإذا سعى في الإصلاح نقل عن هؤلاء إلى هؤلاء كلاماً جميلاً، ومن هؤلاء إلى هؤلاء كذلك وَوَرى، وكذا في الحرب بأن يقول لعدوه: مات إمامكم الأعظم، وينوي إمامهم في الأزمان الماضية، أو غداً يأتينا مداد، أي: طعام ونحوه، هذا من المعاريض المباحة، فكل هذا جائز، وتأولوا قصة إبراهيم ويوسف، وما جاء من هذا على المعاريض، والله أعلم، وأما

---

(١) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٦/ ٥٨) (٢٠٠٣)، وأحمد في المسند (٦/ ٤٥٩، ٤٦١)، وحسنه الترمذي، ويشهد له ما في صحيح مسلم (٤/ ٢٠١١) (٢٦٠٥) من حديث أم كلثوم بنت عقبة: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس كذب، إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها.

كذبه لزوجته وكذبها له، فالمراد به في إظهار الود والوعد بما لا يلزم ونحو ذلك، فأما المخادعة في منع ما عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها، فهو حرام بإجماع المسلمين)[١].

وقال ابن حجر رحمه الله: (قال النووي: الظاهر إباحة حقيقة الكذب في الأمور الثلاثة، لكن التعريض أولى، وقال ابن العربي: الكذب في الحرب من المستثنى الجائز بالنص، رفقاً بالمسلمين لحاجتهم إليه، وليس للعقل فيه مجال، ولو كان تحريم الكذب بالعقل ما انقلب حلالاً. انتهى، ويقويه: ما أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أنس في قصة الحجاج بن علاط... لأن طريق الجمع بينهما أن المأذون فيه بالخداع والكذب في الحرب حالة الحرب خاصة، وأما المبايعة فليست بحال حرب، كذا قال، وفيه نظر؛ لأن قصة الحجاج بن علاط أيضاً لم تكن في حال الحرب.

والجواب المستقيم أن تقول: المنع مطلقاً من خصائص النبي ﷺ، فلا يتعاطى شيئاً من ذلك وإن كان مباحاً لغيره...)[٢].

فتأمل هنا كيف شرع النبي ﷺ هذا اللون من الكذب لأمته عند الحاجة إليه، وامتنع هو منه؛ لأنه يخالف مقام نبوته العظيم.

وفي كل ما مضى من قصص وشواهد، دليل على أن ما يؤدي إلى النصر والظفر مع الإقلال من سفك الدماء مقبول في نظر الإسلام، ما عدا الغدر والخيانة، وهذا من حكمة النبي ﷺ السياسية والعسكرية، وهو لا ينافي مبادئ الأخلاق الإسلامية، فإن المصلحة في الإقلال من عدد ضحايا الحرب مصلحة إنسانية.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٥٨).

(٢) فتح الباري (٦/ ١٨٤-١٨٥).

والمصلحة في انهزام الشر والكفر والفتنة مصلحة إنسانية، وأخلاقية، فاللجوء إلى الخدعة في المعارك يلتقي مع الأخلاق الإنسانية التي ترى في الحروب شراً كبيراً، فإن اقتضت الضرورة قيامها، كان من الواجب إنهاؤها عن أي طريق كان؛ لأن الضرورة تقدر بقدرها، والله لم يشرع القتال إلا لحماية دين، أو أمة، أو أرض، فالخدعة على هذا النحو مع الأعداء بما يؤدي إلى هزيمتهم، تعجيل بانتصار الحق الذي يحاربه أولئك المبطلون، وهذا مبدأ مسلم به في جميع الشرائع والقوانين(١).

- **الحذر:**

كما يفيدنا قوله ﷺ: «**الحرب خدعة**» أخذ الحذر، فكأنه يقول: «**احذروا خداع أعدائكم لكم، فإنهم لن يألوا جهداً في إيقاع الهزيمة بكم، بكل وسيلة يستطيعونها**»!!.

ولذا.. فإن الحذر من أسمى مميزات القائد العام، لما له من أثر عظيم في الإعداد والتنفيذ، وهو يرجع إلى فطنة القائد وذكائه، لكونه راجعاً إلى النفس البشرية التي تبعث الشعور بالخوف، فيتولد منه الحذر والتيقظ والحزم، ويثمر الفوز والظفر، وقد تمثل هذا الخُلق في النبي ﷺ على وجهه الأكمل، وصورته المثلى، حيث كان النبي ﷺ شديد الحذر من أعدائه، وكثير التيقظ لهم، والاحتراز منهم، يفكِّر بكل كبيرة وصغيرة، ويعُدُّ لكل أمر عُدَّته، ويتخذ كل متطلبات الحذر والحيطة، بحيث لم يستطع أعداؤه مباغتته في أي موقف، واستطاع هو أن يباغتهم في أكثر غزواته.

وحين تتأمل في صفة صلاة الخوف، تجد أن مبناها على هذا الخلق، وهو أخذ الحذر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ

(١) السيرة النبوية دروس وعبر، لمصطفى السباعي (ص١٤١) بتصرف.

مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ﴾[١]، حتى مع وضع الأسلحة لابد من أخذ الحذر!!.

ومن هذا المنطلق قال النبي ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده**»[٢].

إن الحذر هو ذاك الذي يكون بقدر مبرراته المنطقية، والعقلية، وليس بالذي يتحول إلى جبن وخور، لا مبرر له.

قال ابن حجر رحمه الله: (قال ابن المنير: السير لمصلحة الحرب أخص من السفر، والخبر ورد في السفر، فيؤخذ من حديث جابر جواز السفر منفرداً للضرورة والمصلحة التي لا تنتظم إلا بالانفراد، كإرسال الجاسوس، والطليعة، والكراهة لما عدا ذلك، ويحتمل أن تكون حالة الجواز مقيدة بالحاجة عند الأمن وحالة المنع مقيدة بالخوف، حيث لا ضرورة)[٣].

بل لو رأيت كثيراً من قرارات النبي ﷺ في الحرب، لوجدت أنها تراعي هذا الجانب، فكان النبي ﷺ يفترض الذكاء في عدوه، فيحسب كل الاحتمالات، ويتوقع منه أسوأها، وكان يتخذ تدبيره على هذا الأساس، ففي أحد توقع الرسول ﷺ أن يقوم العدو بحركة التفاف بجزء من جيشه، غايتها وضع جيش النبي ﷺ بين فكي كماشة، فركز على جبل الرماة، ووضع فيه مفرزة من جيشه ممن يجيدون الرماية، لمنع هذا الالتفاف.

---

(١) سورة النساء، آية (١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٦٠) (٢٩٩٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٦١).

• وفي غزوه لخيبر: توقع الرسول أن يقوم تعاون بين خيبر وغطفان، فنزل ﷺ بجيشه بالرجيع لمنع هذا التعاون، وهكذا حقق النبي ﷺ أعلى درجات الحذر المحمود.

- الحزم والعزم:

إن الحذر لا يعني أن يظل الإنسان متردداً، لا يدري كيف يتصرف، ولا أن يصنع من الأوهام أشباحاً تصرفه كلما أراد أن يُقدم.

وقد كان النبي ﷺ ذا عزيمة وإصرار وحزم، حين تكون هذه المعاني في مواضعها الصحيحة، واتجاهها السليم.

فكان ﷺ يحدد الهدف، ولا ينثني عنه، ما لم يرد إليه ما يوجب ذلك.

إن تحديد الهدف الذي يتم التحرك نحوه أمر لابد منه؛ لرسم مسيرة القتال، وتمثل هذا الهدف، وعدم الانشغال عنه بمعارك جانبية تُفرض على القائد لتضليله، وحرفه عن هدفه، أمر لا يكون بغير تخطيط سليم للمعارك المصيرية، وأخذ بجانب العزم والحزم.

ولذلك رأينا رسول الله ﷺ، يحدد الأهداف التي يريد تحقيقها، ثم يتحرك نحوها بخطوات ثابتة، لا تلهيه عنها المعارك الجانبية التي يفرضها عليه العدو.

• ففي يوم بدر، لم يزل يهتف بربه ماداً يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك[1].

---

(١) سبق تخريجه تحت عنوان (قوة التعلق بالله) (ص٤٣).

فانظر إلى مبلغ عزمه ﷺ على المناجزة والقتال، مع ما كان يراه من كثرة العدو، حيث نظر إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً، فلم يرعه ذلك الجمع، ولم ينثن عن اللقاء بعد أن عزم عليه، فكانت نتيجة ذلك النصر المبين.

• وفي أحد حين انعقدت عزيمته على الخروج، فدخل بيته ولبس لأمته، ثم خرج، فلما رآه الذين أشاروا له بالخروج، ندموا على مشورتهم له، وشعروا بأنهم أكرهوه على الخروج، فقالوا: يا رسول الله استكرهناك، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال ﷺ: «**ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»[(١)]، فنزل الوحي يؤديه على ذلك، ويقول له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[(٢)].

ولما أجمع رأيه على ملاقاة الأعداء وعزم أمره على ذلك، لقيهم بقلب ثابت وجأش لا يتزعزع، فلم يؤثر عليه انخزال ثلث الجيش من مؤمنين ومنافقين من عرض الطريق، ولا كثرة عدوه الذي كان أكثر من ثلاثة أضعافه عدداً وعدة، بل أقدم على الملاقاة، وأعد جنده أفضل إعداد، ثم ناجز أعداءه، فهزمهم، فلما دالت الحرب عليهم بمخالفة الرماة أمره، وتركهم مواقعهم، فانهزم جند الإسلام، صمد النبي ﷺ صمود الجبال، لم يتأخر شبراً واحداً عن موطنه، يقاتل ويجالد بسيفه وقوسه ورمحه، ويدعو أصحابه للالتفاف حوله[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥١)، والحاكم (٢/ ١٢٨-١٢٩) (٢٩٦-٢٩٧)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو في سيرة ابن هشام (٣/ ١٦-١٧).

(٢) سورة آل عمران، آية (١٥٩).

(٣) وانظر ذلك أيضاً تحت عنوان (الشجاعة ورباطة الجأش) (ص٣٠).

• ولقد عزم النبي ﷺ على القضاء على اليهود في الجزيرة العربية، ككيان سياسي، وقوة عسكرية، وجعل ذلك مقدماً على الهدف العسكري الثاني، وهو القضاء على المشركين الوثنيين ككيان سياسي وقوة عسكرية.

ورغم ما كان يفرض على رسول الله ﷺ من معارك جانبية بفعل اليهود أحياناً، وبفعل المشركين الوثنيين أحياناً، فإن ذلك لم يحوِّل رسول الله ﷺ عن هدفه، وجعل يُصفِّي اليهود جماعة بعد جماعة، في كل سنة يصفي جماعة، فصفّى في العام الثالث للهجرة بني قينقاع، وفي العام الرابع بني النضير، وفي العام الخامس بني قريظة، وفي العام السادس بني المصطلق، وفي العام السابع خيبر، ولما انتهى من تحقيق الهدف الأول التفت لتحقيق الهدف الثاني، فصفّى في العام الثامن من الهجرة الكيان السياسي والعسكري للمشركين بفتح مكة، وما تبعها من غزوة حنين.

وهكذا كانت حياته ﷺ كلها حزم وعزم، لا يخطأ حزمه، ولا ينثني عزمه، حتى أقام دولة الإسلام في شبه جزيرة العرب، وشرع في فتح الطريق لخلفائه من بعده في توسعتها خارج الجزيرة من أصقاع الأرض المختلفة، وذلك ببداية غزواته إلى أطراف الشام في مؤتة وتبوك، ثم في تجهيز جيش قبيل وفاته ﷺ بقيادة أسامة، الذي لم يكد يبرح المدينة حتى توفي بأبي هو وأمي.

فقام خليفته الصديق رضي الله عنه يترسّم نهجه في ذلك الحزم والعزم، فأنفذ ذلك الجيش، مع كثرة المعارضة التي أثيرت حوله من كبار الصحابة، لما خشوا الأعراب على المدينة، وقال قولته المشهورة: (والله لا أَحلُّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا، ولو أن الكلاب جرَّت بأرجل أمهات المؤمنين لأنفذت جيش أسامة)[1].

إنه العزم والإصرار والحزم، حين تسوسه الحكمة، فيُبنى بها دولاً، وتُنشأ قوة، ويُرفع رأساً، فتعلو هامة الحق، وإن رغمت قوى الظلم والشر!!.

---

(١) كما أورد ذلك ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٢٩٧).

القسم الثاني

الجنـــد

قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[سورة آل عمران، آية ١٥٩].

كثيراً ما نستشهد بهذه الآية، وننسى أنها جاءت في وسط آيات تتحدث عن غزوة أحد، ولك أن تحصي الأخلاق التي جاءت في هذه الآية، بعد أن ترجع إلى موضعها من القرآن الكريم، وقد قال الحسن البصري رحمه الله مفسراً لهذه الآية: (هذا خُلُق محمد ﷺ بعثه الله تعالى به)[تفسير ابن كثير (٢/ ١٤١)].

مـدخـــل

إن القائد العسكري الناجح، هو الذي يستفيد من الكفاءات العسكرية الموجودة عنده، بل ويصنعها قبل ذلك، فينميها، ويرتقي بها في السلم العسكري، فيزيد في خبرتها ودربتها، من خلال العمل الميداني والعسكري، ولا يكتفي بذلك، بل يختار لها القيادات التي يربيها على سمعه وبصره، لتحمل دفة القيادة يوماً ما، ويُعتبر ذلك من أصعب الأمور، لكنه من أبرز أسباب النجاح.

وإن الناظر بعينه: ليرى كيف حققت المدرسة العسكرية المحمدية ذلك، فقد بلغ عدد القادة الفاتحين الذين حملوا راية الإسلام شرقاً في أيام الفتح الإسلامي في الفترة من (١١هـ) وحتى (٩٤هـ) مائتين وستة وخمسين قائداً، منهم مئتان وستة عشر صحابياً من أصحاب رسول الله ﷺ، والبقية من التابعين[١].

وذلك يقطع بأن إعداده ﷺ للرجال الأوفياء، والجنود المخلصين، كان إعداداً مثالياً، إذ لم تشهد البشرية جنوداً مخلصين كجنود محمد ﷺ، من حيث الاستعداد النفسي للتضحية في سبيل نصرته، ونصرة دعوته، لما كانوا عليه من المحبة العظيمة له، والإيمان العميق بأحقية دولته، وعدالة قضيته، فكانوا جميعاً لا يبالون بمن يواجهون من ذوي قرابةٍ قريبة، ولا الجموع الكثيرة، ولا الفقر، ولا المجاعة، ولا أي عقبة كأداء تعترض سبيلهم في طريق نصرته ﷺ، ونصرة دينه ودولته.

حتى تفانى الرجال في حياطته وإكباره، وفاضت القلوب بتعظيمه وإجلاله، بما لا تعرفه الدنيا لرجل غيره، فالذين عاشروه أحبوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم، ولا يخدش له ظفر، وما كان لذلك الحب أن يكون لولا أن أنصبته من الكمال - الخَلقي والخُلقي - الذي يعشق عادة لم يرزق بمثلها بشر، فذاك أوان يشح فيه الحِبر، ويعجز عنه اللسان، ويعتذر منه البيان...

---

(١) اقتباس النظام العسكري في عهد النبي ﷺ، للواء محمد شيت خطاب (ص١٣٤).

[١]
الاستشـــارة

مع أن النبي ﷺ يحمل عقلاً راجحاً، لا يوازيه عقل، بل عقول الناس بجانب عقله كالسها[١] في جنب شمس الضحى، فيقدر به تدبير أمره، وتصريف شؤون ما يشاء، فلا يسلمه إلى عي أو فشل.

ومع أنه المؤيد بالوحي من عند ربه، فلا ينطق عن الهوى، فحيثما حزبه أمر كان بوسعه أن يستنجد به، ويسأله الهداية لأرشد أمره، وهو الأكرم على الله من أن يخيبه فلا يجيبه.

إلا أنه - مع ذلك كله - كان أكثر الناس استشارة، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه وهو العالم بسنته: (ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ)[٢].

فإلى أي حكمة يهدينا هذا الخُلق النبوي العظيم؟!.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: (أما إن الله ورسوله لغنيان عنها، ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم راشداً، ومن تركها لم يعدم غياً)[٣].

إن الأمة حين ترى نبيها المعصوم، المؤيد بخبر السماء، والمحوط بالعقل الراجح كُلِّف بالاستشارة، وعنده مبررات تركها، لتعلم بطريق الأولى أن تكون هي مأمورة به

---

(١) **السها**: كوكب خفي يمتحن الناس به أبصارهم. مختار الصحاح (ص١٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٥/ ٣٠٦) (١٧٦٧) معلقاً بصيغة التمريض، والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٧٣) (١٣٣٠٣).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٧٦) (٧٥٤٣)، وأورده الشوكاني في فتح القدير (١/ ٣٩٥)، وذكر تحسين السيوطي له.

وملزمة، وما ذاك إلا لما يعود عليها بسببه من نفع في العاجل والآجل، وصلاح في الحال والمآل، مع ما تحظى به من حسن التأسي، وشرف الاقتداء.

ولا يخفى ما في المشورة - أيضاً - من تطييب النفوس والخواطر، ورفع لقدر المستشار، وتأليف له على الدين والخُلق الحسن.

ثم هي سبب للصواب في الرأي، إذ هي مسبار[١] العقول، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وها هم الأنصار، كانوا قبل قدوم النبي ﷺ إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه، ثم عملوا عليه، فمدحهم الله به، ولما بعث الله تعالى نبيه محمد ﷺ وسمعوا بظهوره، تشاوروا في أمره، وورد النقباء إليهم حتى اجتمع رأيهم في دار أبي أيوب على الإيمان به، والنصرة له[٢]، فنالوا بذلك خيري الدنيا والآخرة، وكانوا أسعد الناس حظاً، وأجزلهم رأياً، وأكثرهم أجراً وفضلاً، وذلك بفضل اجتماعهم للشورى، وأخذهم بمفتاح الفكر الصالح، والعقل الحصيف، والرأي السديد.

- **المستشار:**

جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**المستشار مؤتمن**»[٣].

---

(١) **السبر**: التجربة... والمسبار: ما سبر به وقدر به غور الجراحات... والسبر: من أسماء الأسد. [انظر: لسان العرب (٤/ ٣٤٠-٣٤١)].

(٢) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٢٥/ ٣٧)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٨/ ٨٨) (٢٩٧٦) (٢٩٧٧) من حديث أم سلمة، وأبي هريرة، وأخرج حديث أبي هريرة: أبي داود في سننه (٤/ ٣٣٣) (٥١٢٨)، وأخرجه ابن ماجة في سننه (٢/ ١٢٣٣) (٣٧٤٥) (٣٧٤٦) من حديث أبي هريرة، وأبي مسعود، وقال في الزوائد: إسناد حديث أبي مسعود صحيح، ورجاله ثقات. ا.هـ. وصححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود (٥١٢٨).

إنها مسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة، تُلقى على كاهل هذا المستشار، فلا بد أن يدرك أنها تكليف قبل أن تكون تشريف!!. وإلا عُدَّ مفرطاً، فإن الأمانة خُلق عظيم، وتضييعه يجعل صاحبه في عِداد الخائنين!!.

ولذا لا بد أن يحمل المستشار الصفات التي تؤهله أن يمنح الرأي الصواب، بما أكسبه الله من الروية والحكمة.

وصفة المستشار تختلف باختلاف الأمور الطارئة، المحوجة إلى الاستشارة، فإن كانت الشورى في أمر ديني، فلا يكون إلا من أهل العلم والخشية والعدالة، وقلما يكون ذلك إلا في عاقل، فإنه ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله، ولا سبيل لأحد أن يتكلم في أمر الدين من ذوي الخبرات الأخرى، إذ ليسوا له بأهل.

وأما الأمور الأخرى من اقتصاد وسياسة وحرب، فتوكل إلى أهل الاختصاص بها، ممن عرفوا بالعقل والنصح والإخلاص، وقد ذكر الماوردي ﷺ صفات أهل الشورى، **فعدَّها خمس صفات:**

أحدها: عقل كامل، مع تجربة سالفة؛ إذ بكثرة التجارب تنضج الرَّوية.

الثانية: أن يكون ذا دين وتقى، فإن ذلك عماد كل صلاح، وباب كل نجاح، ومن غلب عليه الدين، فهو مأمون السريرة، موفق العزيمة.

الثالثة: أن يكون ناصحاً ودوداً، فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة، ويمحضان الرأي.

الرابعة: أن يكون سليم الفكر من همٍّ قاطع، وغم شاغل، فإن من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأي، ولا يستقيم له خاطر.

الخامسة: أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه، ولا هوىً يساعده، فإن الأعراض جاذبة، والهوى صاد، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد[١].

وحين غابت هذه الأخلاق والصفات رأينا ما يكون في أهل الشورى من ترشيح عشوائي؛ ناشئ عن الهوى والعصبية، والرشوة والأنانية، فلا يكون لهم كبير أثر في الصلاح والإصلاح، ولا اكتراث بالحق والصواب، فتعطلت بذلك الشورى عما جاءت له، حين أُسندت إلى غير أهلها، وإذا ضيعت الأمانة، ووسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة[٢]!!.

- تمثل خُلق الشورى في الحرب:

لقد كان النبي ﷺ جميل العشرة مع جنده الكرام، فكان يشاورهم في أمور كثيرة، كانت الحرب من أظهرها في سيرته، وذلك ليعلي مكانتهم، ويشعرهم بعظيم منزلتهم عنده، وأنهم منه بمنزلة الخواص الذين يركن إليهم فيما يهمه من أموره الخاصة، وأمور دولة الإسلام عامة، ويؤسس بذلك أعظم قاعدة للحكم الإسلامي، ويدرب أمته على التزام الشورى، وترك الاستبداد، ويرى في أصحابه جانب النصيحة والمشاركة في الأمور العامة للأمة، وذلك كله عنوان كمال الخُلق.

وحين نريد أن نذكر صور مشورته ﷺ لأصحابه في الحروب، نجد أن معركةً واحدة تعطينا مدرسة متكاملة في "الشورى"، تلكم هي معركة بدر.

---

(١) أدب الدين والدنيا، للماوردي (ص٢٩٠-٢٩١).

(٢) كما صح بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ في قصة الأعرابي التي أخرجها البخاري، كما في الفتح (١/ ١٧١) (٥٩).

ففي معركة بدر استشار النبي ﷺ أصحابه في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: الاستشارة في القتال.

خرج النبي ﷺ في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، يريد عيراً لقريش، ولا يريد القتال بادئ ذي بدء، فحينما علم أن أبا سفيان استصرخ أهل مكة لنجدته، وأنهم بلغوا ثلاثة أضعاف ما معه، حيث كانوا بين التسعمائة والألف - كما قدمنا - استشار أصحابه في مواجهتهم، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾[1]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد[2] لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه[3].

فَسُرَّ النبي ﷺ ودعا له بخير، غير أنه كان يريد أن يسمع من الأنصار أيضاً، لأن الأنصار إنما عاهدوا الرسول ﷺ على نصرته في مدينتهم وديارهم، أما وهو في بدر، فذلك ما لم تقتضه نصوص المعاهدة، وربما كان الضرر على مدينتهم أكبر، فأراد استشارتهم فيما هو محدق بهم وبه من الخطر، ليكشف رأيهم فيما يعد خارجاً عن بنود تلك المعاهدة، فكرر طلب الإشارة، قائلاً: «**أشيروا علي أيها الناس**»، ففهمت الأنصار

---

(١) سورة المائدة، آية (٢٤).

(٢) **برك الغماد**: موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل بلد باليمن. [مراصد الاطلاع (١/ ١٨٧)].

(٣) هكذا عند ابن هشام (٢/ ١٨٨)، وأصله عند البخاري، كما في الفتح (٧/ ٣٣٥) (٣٩٥٢).

أنه يعنيهم، فبادر سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل.

فقال: (لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبر في الحرب، صُدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر بنا على بركة الله).

فأشرق وجه النبي ﷺ، وازداد سروره، ونشّطه ذلك، ثم قال: «**سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**»[1].

الموضع الثاني: الاستشارة في المنزل.

عندما عزم النبي ﷺ على ما أجمعت عليه كلمة المؤمنين، تقدم لملاقاة عدوه، وقال: «**أشيروا علي في المنزل**»، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري: يا رسول الله أنا عالم بها، وبقُلُبها، إن رأيت أن نسير إلى قلب قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة، فننزل ونسبق القوم إليها، ونغور ما سواها من المياه[2].

وقيل: إن النبي ﷺ نزل على أقرب ماء من بدر، وعرض الأمر على الصحابة، فجاء الحُباب بن المنذر، وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**» فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس

---

(١) أورده ابن هشام (٢/ ١٨٨)، وابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١٧٣)، وفي مسلم (٣/ ١٤٠٤) (١٧٧٩) أن المشورة لسعد بن عبادة، بدل سعد بن معاذ.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٧٥)، وإمتاع الأسماع (ص٨٤).

حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً، فنملؤه ماء، ثم نقاتل، فنشرب ولا يشربون، فقال النبي ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**»، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلب فغوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية[1].

وهكذا أخذ النبي ﷺ بهذه المشورة الصادقة، حين رأى المصلحة كامنة فيها، ولا يهم أكان هو الذي طلبها أم أنها أسديت له، بقدر أهمية ما تكون فيه المصلحة.

الموضع الثالث: الاستشارة في شأن الأسرى.

انجلت المعركة عن نصر مبين، وأسر سبعين، وقتل سبعين، ولعدد الأسرى الكبير، وما يترتب على ما يتخذ فيهم من نفع للإسلام والمسلمين، استدعى الأمر أن يُجمَع له الفكر، ويستشير فيه النبي ﷺ ذوي الرأي والحجا من أصحابه، ما يصنع بهؤلاء الأسرى من قتل أو منٍّ أو فداء؟!.

فقال النبي ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسرى، فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، قربهم فاضرب أعناقهم، وقال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً، فقال العباس: قطعت رحمك، فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرد عليهم شيئاً، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبدالله بن رواحة، فخرج

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٢)، وأخرجه الحاكم (٣/ ٤٢٦) وحكم الذهبي على روايته بالنكارة، وسند ابن إسحاق فيه مجاهيل، لكن الرواية مشهورة في كتب السير، ومبدأ الشورى ثابت بالنصوص الأخرى.

رسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللّين، وإن الله ليشدَّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾**[1]، **ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾**[2]، **وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾**[3]، **وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾**[4]، **ثم قال** ﷺ: «**أنتم عالة فلا ينفلتنَّ منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق**»، فقال عبدالله بن مسعود: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت النبي ﷺ، يقول ابن مسعود: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء في ذلك اليوم، حتى قال: إلا سهيل بن بيضاء، فأنزل الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[5][6].

---

(١) سورة إبراهيم، آية (٣٦).

(٢) سورة المائدة، آية (١١٨).

(٣) سورة نوح، آية (٢٦).

(٤) سورة يونس، آية (٨٨).

(٥) سورة الأنفال، الآيتين (٦٧، ٦٨)، والآيتين قلبت في هذه الرواية.

(٦) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد في المسند (١/ ٣٨٣-٣٨٤)، والترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٥/ ٣٠٤) (١٧٦٧)، وقال: "هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه"، ويبدو أن تحسينه له لشواهده، كما أخرجه الحاكم (٣/ ٢١-٢٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣٦٣٢): "إسناده ضعيف، لانقطاعه... الصواب سهل بن بيضاء، وهو أخو سهيل.. ونقل كلام ابن سعد في الطبقات. قلت: وقصة استشارة النبي ﷺ في شأن الأسرى ثابتة في صحيح مسلم كما سيأتي.

وهكذا تخللت المشورة كل فصل من فصول هذه المعركة الفاصلة، فظهرت بركة تلك المشاورات على خير ما يكون، فكانت لصالح الإسلام وأهله، إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

• وعندما يشعر القائد أنه بحاجة إلى تأييد شعبي، تتأكد في حقه الاستشارة، ولذا نجد استشارته ﷺ في أحد لجماهير جنده، فأشار عليه جمهورهم بالخروج إلى لقاء العدو، وكان رأيه - عليه الصلاة والسلام - البقاء والتحصن بالمدينة، لكنه عمل بما أشار به جمهور الجند.

وهاهنا خُلق التنازل عما يراه الإنسان صواباً، حين تكون نتيجة الشورى بخلاف ما كان يرى.

• وقَبِل مشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه في يوم الأحزاب بحفر الخندق، وبالرغم من أن طول الخندق خمسة آلاف ذراع - أي حوالي (٢٣١٠متر)، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه سبعة أذرع[1]، وكان ذلك في ظروف سيئة جداً، حيث كان العام عام مجاعة، والبرد شديد، والرياح عاتية، والمرجفون في المدينة من المنافقين يثبطون، إلا أن النبي ﷺ أخذ بهذه المشورة، وعزم على هذا الرأي.

فاجتمع له مع هذا الخلق (الصبر وقوة التحمل)، و(العزم والإصرار)، ألا ترون معي كيف يهتف خلق واحد من أخلاق النبي الكريم ﷺ بجند كثير من الأخلاق الرائعة، حتى تصطف أمام عينيك، فتحتار فيما تختار، فلا تملك إلا أن تقول: إنه (الخلق العظيم) الذي حكاه الله في كتابه المبين!!.

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب (ص١٩٤).

وقديماً قال الشاعر الحكيم:

إذا بلـغ الـرأي المـشورة فاسـتعن بـرأي لبيـب أو مـشورة حـازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فـإن الخـوافي قـوة للقـوادم[1]

(١) **القوادم**: أربع ريشات في مُقدم الجناح، الواحدة قادمة، وهي القُدامى، والمناكب اللواتي بعد أسفل الجناح، والخوافي ما بعد المناكب، والأباهر من بعد الخوافي. [لسان العرب (١٢/ ٤٦٩)].

[٢]

الإعداد المعنوي للجند

لقد كان جنود محمد ﷺ يرونه، فيرون فيه القدوة في كل شيء، لما أتاه الله من الإخلاص، والصدق، والمحبة، والوفاء، والشجاعة، والمروءة، والأمانة، حتى خلقت شخصيته تلك شدة التأثر به.

وكان النبي ﷺ يوجه أولئك الجند بما يرون آثاره الحميدة في العاجل قبل الآجل، وما كان لذلك التأثر أن يكون لولا أن هناك أسراراً مكشوفة لابد من إمعان النظر فيها...

- التربية الإيمانية:

لقد كان يربي جنده على التوحيد والإيمان، وحمل المبادئ الحقة، والأخلاق الفاضلة، فانظر إليه حين صلى الصبح بالحديبية - على إثر سماء كانت من الليل - أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟! قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكواكب[١].

وتأمل كيف أنه لما رجع من خيبر فبدا له أحد قال: هذا جبل يحبنا ونحبه[٢]، أتدري لماذا؟!.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٢/ ٣٨٨) (٨٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٩٨) (٢٨٨٩).

لموافقة اسم جبل أحد للتوحيد، يقول السهيلي في «الروض الأنف»: (وقد كان عليه الصلاة والسلام يحب الاسم الحسن، ولا أحسن من اسم مشتق من الأحدية، وقد سمى الله هذا الجبل بهذا الاسم، تقدمة لما أراه سبحانه من مشاكلة اسمه ومعناه؛ إذ أهله وهم الأنصار نصروا التوحيد، والمبعوث بدين التوحيد، عنده استقر حياً وميتاً، وكان من عادته عليه الصلاة والسلام أن يستعمل الوتر ويحبه في شأنه كله استشعاراً للأحدية، فقد وافق هذا الجبل لأغراضه عليه الصلاة والسلام، ومقاصده في الأسماء...)[١].

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾**[٢]، **لتركبن سنن من كان قبلكم**»[٣].

لقد عالج النبي ﷺ هذا الموقف بكل حزم وصراحة، حيث كانت هذه السدرة التي للمشركين يتبركون بها، ويعلقون بها أسلحتهم، رجاء بركتها، ولما رآها النبي ﷺ صرف عنها - على أنه في يوم صائف - إلى ظل هو أدنى منها[٤].

---

(١) الروض الأنف، للسهيلي (٣/ ١٥٩).

(٢) سورة الأعراف، آية (١٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٦/ ٣٣٩) (٢٢٧١)، وقال: حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢١٨).

(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص١٨١)، والدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد (ص٤٧).

كل ذلك حماية للتوحيد، وسداً لطرق الشرك، وتحذيراً من تقليد الأمم السابقة، وأنه لا يكون تقليدهم إلا من غلبة الجهل، فالأمم التي تعرف وجوه الخير والفساد، وطريق الضر والنفع، تأخذ الخير وتتمسك به، وتعرض عن الفساد وتفر منه، وتأبى أن تسلك أيَّ طريق يضر بها، ولو سلكته الأمم، وسارت في ركابه.

كما أن الأمة الواثقة بنفسها، المعتزة بشخصيتها، المطمئنة إلى ما عندها من الحق والخير، تأبى أن تسير وراء غيرها فيما يؤذيها، وينافي مبادئها، فإن قلدت، كانت ضعيفة الشخصية، مضطربة التفكير، مستسلمة للأهواء، مترديـة في الانحلال، وتلك هي الجاهلية التي أنقذنا الله منها برسوله ﷺ وكتابه وشريعته.

فإن المقلدين جهال مهما تعلموا، أطفال مهما كبروا، وسيظلون أولاداً جهالاً حتى يتحرروا.

• كما كان النبي ﷺ يربي جنوده على عدم الاغترار، وأن لا يداخل قلوبهم العجب، فروي عنه أنه قال حينما رأى كثرة من معه يوم حنين: «**لن نغلب اليوم من قلة**»[1].

أي: أن مثل هذا الجيش في كثرة عدده لا يغلب إلا من أمور معنوية تتعلق بنفوس أفراده، تتعلق بإيمانهم وقوة أرواحهم وإخلاصهم وتضحياتهم، وقد وضع بذلك رسول الله ﷺ قاعدة جليلة، وهي أن النصر لا يكون بكثرة العدد، ولا بجودة السلاح، وإنما يكون بشيء معنوي يغمر نفوس المحاربين، ويدفعهم إلى التضحية والفداء.

---

(١) أورده ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٦٦)، وقيل أن الذي قاله أحد الصحابة، انظر: زاد المعاد (٣/ ١١١).

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى بقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

• كما كان النبي ﷺ يربيهم على الصلاة والصلاح، فيؤديها في وقتها ولا يؤخرها عن ذلك، ويأمرهم بذلك، وحين شغله الأعداء عنها يوم الأحزاب، قال: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس**»[2].

وبينما كان يسير في طريقه مع جنده بعد أحد الغزوات[3] في الليل، قال بعض القوم: لو عرَّسْت بنا يا رسول الله، قال: «**أخاف أن تناموا عن الصلاة**»، فقال بلال: أنا أوقظكم، فاضطجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبته عيناه، فنام، فاستيقظ النبي ﷺ وقد طلع حاجب الشمس، فقال: «**يا بلال أين ما قلت؟**» قال: ما ألقيت عليّ نومة مثلها قط، قال: «**إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردَّها عليكم حين شاء، يا بلال، قم فأذن بالناس**»[4].

---

(١) سورة التوبة، آيتين (٢٥-٢٦).

(٢) سبق تخريجه في موضوع قوة التعلق بالله (ص٤٤).

(٣) قال ابن حجر في الفتح (٢/ ٨٠): "كان ذلك في رجوعه من خيبر، كذا جزم به بعض الشراح، معتمداً على ما وقع عند مسلم من حديث أبي هريرة، وفيه نظر"، وقال ابن القيم في الزاد (٣/ ٣٥٧): "واضطربت الرواية في تاريخها، فقال المعتمر بن سليمان عن شعبة: إنها كانت في غزوة تبوك، وقال غيره عنه: إنها كانت في مرجعهم من الحديبية".

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي قتادة، كما في الفتح (٢/ ٧٩) (٥٩٥).

وفي سنن أبي داود، أن النبي ﷺ قال: «**من يكلؤنا**»، فقال بلال: أنا...[١].

فنجد هنا كيف أن النبي ﷺ خشي فوات الصلاة، فلم ينم إلا وقد عيَّن من يحرسهم، ويوقظهم للصلاة، إلا أنه من شدة التعب نام، فلم يوقظهم إلا حر الشمس!!.

فلما استيقظ رسول الله ﷺ رحل عن ذلك الوادي قبل الصلاة، وأخبرهم أن به شيطان[٢].

ولقد كان هؤلاء الجنود يكنون لمربيهم ومعلمهم عظيم المودة وبالغ الاحترام، مع اعتقاد نبوته، ومعرفة خصائصه، ولذا كان أول من استيقظ من منامه أبو بكر - وكانوا لا يوقظون رسول الله ﷺ حتى يستيقظ - فاستيقظ عمر، فقعد أبو بكر عند رأسه، فجعل يكبر ويرفع صوته حتى استيقظ رسول الله ﷺ[٣].

• كما كان النبي ﷺ مع عظيم تربيته لهم يستبعد المخذِّلين والمفسدين عن الجيش، فكان يسعى سعياً حثيثاً أن لا ينضم إلى جيشه إلا المؤمنين، وأن يخلو من أهل الريب والشك، لأن ضرر هؤلاء على الجيش قد يفوق ضرر العدوّ نفسه، لما يمارسونه من تخذيل للمسلمين، أو إفساد لهم، ولذلك فإنه - عليه الصلاة والسلام - وهو في طريقه إلى أحد، رأى كتيبة حسنة التسليح، منفردة عن سواء الجيش، فقال: ما هذا؟ فأبلغوه أنها كتيبة اليهود، حلفاء عبدالله بن أبي بن سلول، يرغبون في مشاركة المسلمين مقاتلة

---

(١) أخرجه أبو داود، كما في السنن (١/ ١٢٢) (٤٤٧)، وصححه الألباني، كما في صحيح سنن أبي داود (٤٤٧) وفيه ذكر: أنه في زمن الحديبية.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ من حديث زيد بن أسلم، كما في تنوير الحوالك شرح موطأ مالك (١/ ٣٥)، وانظر: زاد المعاد (٣/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين، كما في الفتح (٦/ ٦٧١) (٣٥٧١).

المشركين، فقال رسول الله ﷺ: هل أسلموا؟ فقالوا: لا، فقال: مروهم أن يرجعوا، فإننا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك[١].

- التفاؤل والتشجيع والثناء:

مع شدة الحذر التي كان النبي ﷺ يتحلى بها أثناء سيره للحرب، إلا أنه القائد الذي لم يجد اليأس والقنوط إلى قلبه مسلكاً، فقد كان متفائلاً يربي في نفوس جنوده هذا الخلق.

ففي يوم بدر قال: «**سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم**»[٢].

ويوم الخندق كان يضرب بمعوله الحجر، ويقول: «.. **الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة،... أعطيت مفاتيح فارس... أعطيت مفاتيح اليمن...**»[٣].

ويوم أن فرغ من هذه الغزوة، ورجع الأحزاب على أعقابهم خائبين، بشر أصحابه بقوله: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**»[٤].

وكان شعاره يوم الخندق، وبني قريظة: «**حم، لا ينصرون**»[٥].

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب (ص١٥١).

(٢) سبق تخريجه في (تمثل خلق الشورى) (ص١١٥).

(٣) سبق تخريجه في (إقدام وقوة) (ص٤٠).

(٤) سبق تخريجه في (النزاهة وشرعية الحرب) (أسباب الغزوات) (ص٧٣).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٣٣) (٢٥٩٧)، والترمذي كما في تحفة الأحوذي (٥/ ٢٦٩) (١٧٣٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٥٩٧).

ويوم بني المصطلق: «**يا منصور أمِت أمِت**»[١]، ولا يخفى ما في ذلك من التصميم والتفاؤل.

وحين قدم سهيل بن عمرو مفاوضاً يوم الحديبية، قال متفائلاً: «**قد سهل لكم من أمركم**»[٢].

• كما كان النبي ﷺ يضيف مع التفاؤل تشجيعهم وبث روح الحماس لدى جنوده، فها هو يقول لهم يوم بدر: «**والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة**»[٣]، وقال وهو يحضهم على القتال: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**» - وحينئذ - قال عمير بن الحمام: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ.. بخ؟**» قال: لا، والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قتل[٤].

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفراء - فقال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟! قال: «**غمسه يده في العدو حاسراً، فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل**»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٥/ ٣٩٠) (٢٧٣١، ٢٧٣٢) في حديث طويل، وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦).

(٣) كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٦).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٠) (١٩٠١).

(٥) أخرجه ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام (٢/ ١٩٦).

وكان يقول لهم: «**الجنة تحت ظلال السيوف**»[١].

• أما الثناء، فكان النبي ﷺ لا يكاد يدع أحداً يعمل عملاً في أي شأن من شؤون الجهاد والحرب، إلا أثنى عليه بقدر ذلك العمل حين يعلم صدق صاحبه.

فها هو حين ندب الناس - يوم الخندق - ليأتيه أحدهم بخبر القوم، انتدب الزبير، ثم ندبهم أخرى، فانتدب الزبير، ثم ندبهم ثالثة، فانتدب الزبير، فلما رأى هذا الإصرار منه أثنى عليه، وقال: «**إن لكل نبي حوارياً، وحواري الزبير بن العوام**»[٢].

ويقول أنس رضي الله عنه: كنا مع النبي ﷺ في سفر أكثرنا ظلاً الذي يستظل بكسائه، فأما الذين صاموا فلم يعملوا شيئاً، وأما الذين أفطروا فبعثوا الرِّكاب، وامتهنوا، وعالجوا، فقال النبي ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**»[٣].

قال ابن حجر: (قال ابن أبي صفرة: فيه أن أجر الخدمة في الغزو أعظم من أجر الصيام)[٤].

ويقول جرير رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألا تريحني من ذي الخلصة**» - وكان بيتاً في خثعم يسمى كعبة اليمانية - قال: فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أَحْمس، وكانوا أصحاب خيل، قال: وكنت لا أثبت على الخيل، فضرب في صدري، وقال: «**اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً**»، فانطلق إليها فكسرها، وحرَّقها، ثم بعث إلى رسول

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٤٠) (٢٨١٨) من حديث ابن أبي أوفى، ومسلم (٣/ ١٥١١) (١٩٠٢) من حديث أبي موسى الأشعري، وفيه قصة جميلة عند مسلم.

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٦٢) (٢٨٤٦).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٩٩) (٢٨٩٠).

(٤) الفتح (٦/ ١٠٠).

الله ﷺ بخبره، فقال رسول جرير: والذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها، كأنها جمل أجوف أو خرب، قال: فبارك في أحمس ورجالها، خمس مرات[١].

إن هذا الحديث يجمع مع الثناء الدعاء، وكذا الرحمة بجرير حين لم يكن يثبت على الخيل، فدعا له النبي ﷺ، ثم بارك على أحمس ورجالها خمس مرات، ويلتبس على من لا يدرك المدح المذموم بالثناء المطلوب، فذاك لون وهذا لون آخر.

وحتى حينما لا يحقق الجُند ما أراده القائد يمتدحهم حينما يعلم أنهم بذلوا ما في وسعهم، وطاقتهم، يدل على ذلك أن جيش مؤتة عندما عاد إلى المدينة، أخذ الناس يحثون التراب على الجند، ويقولون: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله! فيقول النبي ﷺ: «**ليسوا بالفرَّار، ولكنّهم الكرّار إن شاء الله تعالى**»[٢].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية، فحاص الناس حيصة، وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف، وبوئنا بالغضب؟! ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج، فقال: من القوم؟ قال: فقلنا: نحن الفرّارون!، قال: «**لا، بل أنتم العكَّارون**[٣]، **أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين**»، قال: فأتيناه حتى قبلنا يده[٤].

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٧٩) (٣٠٢٠).

(٢) من رواية ابن إسحاق، كما عند ابن هشام (٤/ ١٦-١٧).

(٣) قال في عون المعبود (٧/ ٢٢١): العكّارون: أي أنتم العائدون إلى القتال والعاطفون عليه.

(٤) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٦) (٢٦٤٧)، والترمذي كما في تحفة الأحوذي (٥/ ٣٠٨) (١٧٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢١) (٣٧٠٤)، والإمام أحمد (٢/ ٧٠)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند =

ألا ما أعظم ذلك الجيل الفريد، الذي يسارع حينما يشعر بخطأ ما إلى الاعتذار، فماذا عساه أن يجد إلا الرحمة والمحبة والثناء!!.

- العزم والتصميم والحكمة:

لقد استطاع النبي ﷺ أن يوجد في نفوس أصحابه العزم والتصميم، ولك أن تتخيل كيف كان المسلمون يواجهون المشركين، وهم ثلث عددهم، لولا العزم والتصميم والشجاعة.

ألا ترى إليه كيف قال لهم يوم أحد، لقد قال لجنده: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً، يختال عند الحرب إذا كانت، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل.

فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك، فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين.

فحينما رآه رسول الله ﷺ يتبختر قال: «**إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن**»[1].

= (٧/ ٢٠٣) (٥٣٨٤)، ووهَّم ابن كثير في البداية (٤/ ٢٤٤-٢٤٥) ابن إسحاق في الرواية الأولى، وقال: "وإنما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هنالك، وقد كان فيهم عبدالله بن عمر" ا.هـ.

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٨-١٩)، وعرض السيف من رسول الله ﷺ، وأخذه من أبي دجانة في صحيح مسلم (٤/ ١٩١٧) (٢٤٧٠).

وكان حنظلة بن أبي عامر عروساً ليلة أُحد، وعندما سمع النداء عجل بالخروج، ولم يغتسل، فلما رآه شداد بن الأسود قد علا أبا سفيان، ضربه شداد فقتله، فحينما رآه النبي ﷺ قد قتل، قال: «**إن صاحبكم لتغسله الملائكة**»[١].

إن ذلك العزم العظيم، أبلغه أن يترك عرس الدنيا لينال عرس الآخرة!!.

ولا زلنا في أُحد، فيأتي ابن أم مكتوم، وهو الرجل الأعمى، فيطلب من رسول الله ﷺ أن يعطى اللواء، يا لله! أعمى يشارك في الحرب، وقد امتلأ عزماً وتصميماً[٢]!.

• وفي سرية مؤتة: أخذ جعفر بن أبي طالب اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء[٣].

إنه ذلك العزم والتصميم الذي يجعل قائداً كخالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: (ما ليلة تهدى إلى بيتي فيها عروس أنا لها محب، وأُبشَّر فيها بغلام، بأحب إليَّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين، أصبح بها العدو)[٤].

وفي ذات الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ يربي جنده على العزم والإصرار، كان يحذرهم من التسرع أو مجانبة الحكمة.

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة (٣/ ٢٥)، وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ١٤٤).

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٦)، وقال: "رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن"، وأخرج البخاري، كما في الفتح (٧/ ٩٤) (٣٧٠٩): أن ابن عمر كان إذا سلم على ابن جعفر قال: "السلام عليك يا ابن ذي الجناحين"، ثم انظر في الشرح تحسين ابن حجر لإسناد ما أخرجه الطبراني.

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٥٣): "رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح".

وها هو أحد الأبطال المصرِّين من أصحابه، يقص قصته في غزوة ذي قَرَد[١]، ذلكم هو سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يقول: بعث النبي ﷺ بظهره[٢] مع رباح غلام رسول الله ﷺ، وأنا معه، وخرجت معه بفرس طلحة، فلما أصبحنا إذا عبدالرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، قال: فقلت: يا رباح! خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه، قال: ثم قُمت على أكمة، فاستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً: يا صباحاه! ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز، أقول:

أنـــا ابـــن الأكـــوع واليـــوم يـــوم الرّضـــع

فألحق رجلاً منهم، فأصك سهماً في رحله، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه، فوالله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إليَّ فارس أتيت شجرة، فجلست في أصلها، ثم رميته، فعقرت به، حتى تضايق الجبل، فدخلوا في تضايقه، فعلوت الجبل، فجعلت أردِّيهم بالحجارة، قال: فما زلت كذلك، أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلَّفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحاً يستخفون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه... إلى أن قال: فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل، وكل شيء استنقذته من المشركين وكلَّ رمح وبردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل الذي استنقذت من القوم، وإذا هو يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها، قال: قلت: يا رسول الله! خلّني فأنتخب من القوم مائة رجل، فأتبع القوم

---

(١) ذو قَرَد: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر. [معجم البلدان (٤/ ٣٢١)].

(٢) الظهر: الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال، وفي رواية "اللقاح" وهي الإبل ذات الألبان.

فلا يبقى منهم مُخْبَرٌ إلا قتلته، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء النار، فقال: «**يا سلمة! أتراك كنت فاعلاً؟**» قلت: نعم، والذي أكرمك!، فقال: «**إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان**»... فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «**كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجَّالتنا سلمة**»(١).

لقد امتدحه النبي ﷺ على شجاعته وإصراره، لكن ذلك لم يمنعه أن يقول له: «**إنهم الآن ليقرون في أرض غطفان**»، وفي رواية عند البخاري: «**يا ابن الأكوع ملكت فأَسْجِحْ**»(٢)، أي أنك لا تدركهم، وقد وصلوا الآن أرض غطفان، والقرى هي الضيافة.

إن ضحك النبي ﷺ يفيدنا خلق المحبة والألفة التي ينبغي أن تكون بين القائد والجنود، وثناؤه على إصرار أبي قتادة وكان على الفرس، وسلمة وكان راجلاً، يفيدنا التشجيع مع العدل، وكان قد أردف سلمة على العضباء وأعطاه سهمين، وإخباره لسلمة أنه لا يدرك القوم، وأنهم يقرون في أرض غطفان، يعلمنا الحكمة والأناة، وأنه لا ينبغي التسرع، لا سيما مع فوات الأوان.

---

(١) القصة بهذا اللفظ عند مسلم (٣/ ١٤٣٥-١٤٤١)، وفيها فوائد كثيرة، وأصلها عند البخاري مختصرة، كما في الفتح (٦/ ١٨٩) (٣٠٤١) وانظر أطرافه.

(٢) أَسْجِحْ: أي أحسن وأرفق. [الفتح (٦/ ١٩٠)].

[٣]

الإعداد المادي للجند

حقاً.. لقد تحققت أسطورة: "الشعب هو الجيش"، وذلك عندما أطلق النبي ﷺ صيحة الحرب، وأخذ يعد العدة لقتال الروم في تبوك، لقد التحق بالجيش كلّ قادر على حمل السلاح، لم يتخلف من الناس إلا من كانوا من المنافقين، وثلاثة من أهل الإيمان لا عذر لهم في تخلفهم، ما كانوا في ساعة من الساعات أشدَّ من هذه ندماً منهم على تخلفهم، يقول اللواء مصطفى طلاس: (ولا توجد في التاريخ تعبئة شاملة تفوق هذه النسبة)[١].

ومما يزيد من جلال وروعة هذا الإجراء، أن الشعب كان يُقبل على الالتحاق بالحرب طائعاً غير مكره، يتشوق إلى لقاء العدو، لعله يفوز بإحدى الحسنيين، بينما يلتحق الشعب بالحرب في ظل القيادات الأخرى والأنظمة الأخرى، خوفاً من أن تناله عقوبة التخلف عن الالتحاق بالحرب!!.

والجندي: هو العدة الأولى في الحرب، وبدونه لا يكون نصر ولا هزيمة، وقد كان النبي ﷺ يبايع أصحابه في الحرب على ألا يفروا، وربما بايعهم على الموت[٢].

إن الإعداد والاستعداد في العلوم العسكرية مرحلة في غاية الأهمية، وهي تسبق مرحلة التعبئة العامة، والقتال الحاسم، ولها أثر فعّال على نتيجة المعركة، ومصير المقاتلين.

---

(١) الرسول العربي وفن الحرب (ص٢٦٣).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٩٥)، وانظر: صحيح البخاري، كما في الفتح (٧/ ٥١٤) (٤١٦٩).

وإن قول الله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، بعد قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾[١]، ليعطينا بوضوح لا لبس فيه ولا غموض، النظرية الإسلامية في الإعداد العسكري.

ومن هذا المنطلق: فإن المدرسة النبوية العسكرية، اعتمدت الإعداد العام الشامل لجميع المكلفين من أفراد هذه الأمة، لكننا هنا نلمح إلى بعض ذلك بشيء من الاختصار.

- التدريب والرمي:

إن كلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ في الآية السابقة منكَّرة، وهي من الألفاظ المطلقة، لم تقيد بوصف من الأوصاف، فبقيت على إطلاقها لتشمل جميع أنواع القوة، التي يمكن الحصول عليها.

وها هو النبي ﷺ يؤكد لنا هذه الآية، وأن (الرمي) هو (القوة) فهي كامنة فيه، فيقول وهو على المنبر:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»[٢].

إن هذا الحديث يكشف قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة أسرار القوة، فالطائرات الحربية التي ترمي القنابل والصواريخ تعتبر رمي، والدبابات رمي، والبنادق رمي، فهل يليق بمعشر المسلمين بعد ذلك أن يتخلوا عن هذا الحديث ليأخذ به أعداؤهم؟!.

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٢) (١٩١٧).

وحينما مر النبي ﷺ على نفر من المسلمين ينتضلون[١]، قال لهم: «**ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان**»، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما لكم لا ترمون؟**» قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: «**ارموا، فأنا معكم كلكم**»[٢].

وكان يحث على الرمي والتدريب، بل وصناعة النبل، فقال ﷺ: «**إن الله ﷻ يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر في الجنة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرَّامي به، ومُنبله، وارموا، واركبوا، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا..**»[٣].

كما كان يعلمهم التوقيت المناسب للرمي، فقال لأصحابه حين صفهم يوم بدر لملاقاة قريش: «**إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل**»[٤].

والكثب: هو القرب، والمعنى إذا دنوا منكم فعليكم بالرمي؛ لأنهم إذا رموهم عن بعد قد لا تصل، وتذهب في غير منفعة، كما أن الرمي من مسافات بعيدة يكشف عن موقع رماة العدو!!.

وقد يبلغ الأمر إلى تأثيم من يترك هذا التدريب أو ينساه، فيكون من العصاة، يدل على ذلك أن فُقيماً اللخمي قال لعقبة بن عامر: أراك تختلف بين هذين الغرضين، وأنت كبير يشق عليك، فقال عقبة: لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ، لم أعانيه، قال الحارث: فقلت لابن شماسة: وما ذاك؟ قال: أنه قال: «**من علم الرمي ثم تركه، فليس منا، أو قد عصى**»[٥].

---

(١) أي يترامون: والتناضل الترامي للسبق. [الفتح (٦/ ١٠٨)].

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٠٧) (٢٨٩٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ١٣) (٢٥١٣)، والنسائي (٦/ ٢٢٢) (٣٥٧٨) وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٠٧) (٢٩٠٠).

(٥) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٣) (١٩١٩).

• كما كان ﷺ يُجري المنافسات والمباريات بين جنده، فيتسابقون على الأقدام، وعلى الخيل...

قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :... فبينما نحن نسير، إذ برجل من الأنصار لا يسبق شداً، يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك، قال سلمة: فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريماً، ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله! بأبي وأمي! ذرني فلأسابق الرجل، فقال: «**إن شئت**»، قال: قلت: اذهب إليك، وثنيت رجليَّ، فطفرت - أي: وثبت وقفزت - فعدوت، قال: فربطت عليه شرفاً أو شرفين، أستبقي نَفَسي - أي: حبست نفسي عن الجري الشديد كي لا ينقطع نفسي - ثم عدوت في أثره، فربطت عليه شرفاً أو شرفين، ثم إني رفعت حتى ألحقه - أي: أسرعت - قال: فأصكه بين كتفه وقلت له: قد سُبقت والله!، فقال: أنا أظن أسبق، قال سلمة: فسبقته إلى المدينة[١].

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: (وفيه المسابقة على الأقدام، ولا خلاف في جوازه بغير عوض، وأما بالعوض فالصحيح لا يصح)[٢].

وفي الوقت الذي كان يقول فيه النبي ﷺ في غزوة من الغزوات: «**استكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل**»[٣].

لأن النعال من العُدة التي لابد أن يتفقدها المحارب، كان يأمر أصحابه - أيضاً - بخلع هذه النعال أحياناً ليتعلموا القوة والخشونة، فقد يضطرون لهذا يوماً ما، ولا يخفى ما في كل ذلك من إكسابهم اللياقة البدنية التي يحتاجونها في ساحة المعركة.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٣٩) (١٨٠٧)، وسبق تخريجه قريباً.

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٢٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٦٠) (٢٠٩٦).

فعن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه رحل إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقدم عليه، فقال: أما إني لم آتك زائراً، ولكني سمعت أنا وأنت حديثاً من رسول الله ﷺ رجوت أن يكون عندك منه علم، قال: وما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: فما لي أراك شعثاً وأنت أمير الأرض؟ قال: إن رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه، قال: فما لي لا أرى عليك حذاء؟ قال: كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتفي أحياناً[١].

إن الجمع بين أحاديث الأمر بالانتعال وهي كثيرة، وخلعها أحياناً، يعطينا خُلقاً ذكياً مركباً، يناسب جميع الأحوال!!.

• وأما الخيل فمر معنا كيف فرق النبي ﷺ في السباق بين الخيل المضمرة، والتي لم تضمر[٢]، بل ثبت أن النبي ﷺ كان يضمر الخيل، يسابق بها[٣].

قال في «عون المعبود»: (والإضمار أن تعلف الخيل حتى تسمن، وتقوى، ثم يقلل علفها بقدر القوت، وتدخل بيتاً وتغشى بالجلال حتى تحمى فتعرق، فإذا جف عرقها خف لحمها، وقويت على الجري)[٤].

فكان النبي ﷺ يسابق بنفسه، وقد كان له ناقة تسمى العضباء لا تكاد تُسبق، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، حتى عرفه منهم، فقال: «**حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**»[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٧٥) (٤١٦٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤١٦٠).

(٢) سبق تخريجه في خُلق (عدل الحليم) (ص٨٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٩) (٢٥٧٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٥٧٦).

(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/ ١٧٣).

(٥) أخرجه البخاري، كما في فتح الباري (٦/ ٨٦) (٢٨٧٢).

كما جعل النبي ﷺ السبق في هذه الأمور من السبق المشروع، فقال: «**لا سبق إلا في خف، أو حافر، أو نصل**»(١).

وكان يقول لهم: «**كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل، إلا رميه بقوسٍ، أو تأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق**»(٢).

إنها نصوص قولية وعملية، تجعلنا أمام خُلق واضح من أخلاق الحرب، ألا وهو التدريب المبكر، والاستعداد للقاء العدو، وهل ذاك إلا دليل العقل الناضج والفكر السليم؟!.

- **الانضباط:**

كما ربى النبي ﷺ في نفوس جنده ما يسمى بالانضباط العسكري، فكانوا ينتظرون الكلمة منه ليأخذوا بها كما جاءت.

ولما جاء عروة بن مسعود في زمن الحديبية للتفاوض مع رسول الله ﷺ، فجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بحليته، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس رسول الله ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ، ضرب المغيرة يده بنعل السيف، وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ... ثم جعل عروة يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٢٩) (٢٥٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٥٧٤).

(٢) هذا لفظ الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٥/ ٢١٨) (١٦٨٧)، وهو عند النسائي (٦/ ٢٢٣) (٣٥٧٨)، وعند أبي داود (٣/ ١٣) (٢٥١٣)، وعند ابن ماجه (٢/ ٩٤٠) (٢٨١١).

النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت مليكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً[١].

لقد كان النبي ﷺ حين يأمرهم بأمر يبتدرون أمره، فحينما عيَّن حذيفة رضي الله عنه ليلة الأحزاب أن يأتيه بخبر القوم، أجابه حذيفة على أن البرد كان شديداً تلك الليلة، وقال: فلم أجد بُداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، وقال لي: «**اذهب، فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم عليَّ**»، فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمام[٢] حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**ولا تذعرهم عليَّ**»، ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قُرِرتُ[٣]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «**قم يا نومان**»[٤].

إن حذيفة رضي الله عنه ترك قتل أبي سفيان رغم أنه تمكن منه؛ تحقيقاً لأمر النبي ﷺ، الذي علَّمهم على الانضباط، وقد رأى حذيفة نتيجة عدم انضباط الرماة يوم أحد، على أنه قال لهم: «**لا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير حتى أرسل لكم**»[٥]، فلا يريد أن يتكرر نفس الخطأ.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٥/ ٣٨٩) (٢٧٣١) (٢٧٣٢).

(٢) أي: لا يشعر بالبرد، بسبب بركة إجابته النبي ﷺ.

(٣) قُررت: أي بردت.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤١٤) (١٧٨٨).

(٥) سبق تخريجه في خلق (التخطيط أثناء الحرب) (وفي أحد) (ص٥٩).

وقد تقدم ذكر ما جاء في سرية عبدالله بن جحش، وهي سرية نخلة، وكيف كان انضباطهم[١].

- التسليح:

وأما إعداده ﷺ السلاح والعدة والعتاد، فقد كان إعداداً مثالياً، لم يفعله أحد من مناوئيه في الجزيرة العربية من يهود أو مشركين.

ويوم أن أفاء الله عليه بأموال بني النضير التي لم يوجف عليها المسلمون خيلاً ولا ركاباً، وكانت أموالاً كثيرة، جعل النبي ﷺ ذلك المال في السلاح والكُراع، بعد نفقة أهله سنة[٢].

وقد أخبر أن صانع السهم حين يحتسب في صنعته الخير يدخله الله بذلك الجنة[٣]، وهذا فيه الحث الأكيد، والترغيب الشديد على صناعة السلاح، وادخاره لملاقاة العدو.

وكان النبي ﷺ يعطي كل جندي من جنوده قتَل قتيلاً من الكفار أثناء الحرب سَلَبَه: من سيف وقوس ورمح ودرع ومغفر[٤]، وغير ذلك مما يكون مع المقاتل من سلاح ومتاع ونحوه، وكان يقول: «**من قتل قتيلاً له عليه بيِّنة فله سَلَبُه**»[٥].

فما بلغ العام الثامن من الهجرة إلا وقد تسلح المسلمون تسليحاً جيداً، كما يدل على ذلك حالهم يوم فتح مكة، حيث كان النبي ﷺ في كتيبته الخضراء[٦]، فيها المهاجرون

---

(١) انظر: خلق (التخطيط قبل الحرب) (أحد سرايا التحري) (ص٤٧).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٨/ ٤٩٨) (٤٨٨٥).

(٣) تقدم تخريجه في خُلق (التدريب والرمي) (ص١٢٢).

(٤) المغفر: زرد ينسج على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة. [مختار الصحاح (ص٢٢٣)].

(٥) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٨٤) (٣١٤٢).

(٦) قال ابن هشام: وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها. [سيرة ابن هشام (٤/ ٣٣)].

والأنصار رضي الله عنهم، لا يرى منهم إلا الحدَق من الحديد، حتى دهش من ذلك أبو سفيان، وقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، فقال له العباس رضي الله عنه: إنها النبوة، قال: فنعم إذن[١].

ومع ذلك فإنه حينما أراد أن يتوجه إلى هوازن وثقيف، وذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً، أرسل إليه النبي ﷺ، وصفوان يومئذ مشرك، وقال له: «**يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً**»، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال: «**بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**»، فقال صفوان، ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح[٢].

ولم يكتف ﷺ بهذا السلاح المألوف، بل أحب أن يطور أسلحته بما لم يكن عند أعدائه، ولم يألفوه، كما حدث في غزوة أوطاس لمقاتلة هوازن وثقيف من أهل الطائف، وذلك أنه ﷺ بعث بعضاً من أصحابه إلى (جَرَش) ليتعلموا صناعة أسلحة جديدة فتّاكة، تخترق الحصون، كالدبابات[٣]، والمجانيق[٤].

وبالفعل استعمل النبي ﷺ هذه الأسلحة في حصاره لأهل الطائف، فقذف بالمنجنيق، وزحف جنوده بالدبابات لاختراق الحصن وثقبه، غير أن ثقيفاً صبرت على قذف المنجنيق، واحتالت على الدبابات، فاستعملت لها سلاحاً مضاداً، وهو قطع الحديد المحماة، فأحرقتها وتفرق من كان فيها من المسلمين[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٣٣-٣٤).

(٢) سبق تخريجه في خلق (النزاهة وشرعية الحرب) (الزهد في الدنيا) (ص٧٦).

(٣) **الدبابة**: آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال، ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه، وتقيهم ما يُرمون به من فوقهم. [النهاية (٢/ ٩٦)].

(٤) **المنجنيق**: القذاف التي ترمى بها الحجارة. [لسان العرب (١٠/ ٣٣٨)].

(٥) سيرة ابن هشام (٤/ ٩٤).

وكان النبي ﷺ يتسلح بنفسه، فكان له عشرة سيوف، وسبعة دروع، وخمسة أقواس وقيل: ستة، وخمسة أرماح، وجعبة يجمع فيها نبله، ومنطقة من أديم، وثلاثة أتراس، وثلاث حرَبات، ومغفران[١].

وكان ﷺ يقول في شأن الخيل: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم**»[٢].

ويرغب في حبس الفرس وتدريبها، فيقول: «**من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريّهُ، وروثه وبوله، في ميزانه يوم القيامة**»[٣].

ومع ذلك كله، فكما قيل في أمة (اقرأ) أنها لا تقرأ، فكذلك أمة (وأعدوا) لم تعد شيئاً، ألا إن الأمة المحمدية حينما تخلت عن هذا الإعداد المعنوي والمادي للجند، تسلط عليها أعداؤها، وأضحت فريسة سهلة لكل باغ وماكر، وسيبقى السيف مصلت على رقبتها حتى تحذو حذو نبيها - عليه أفضل الصلاة والسلام - فهل تعي؟!!.

بل إن المستقرئ للسيرة النبوية، يرى أن الرسول ﷺ لم يحارب حرباً دفاعية إلا في غزوة الأحزاب، حتى في أحد لم تكن حرباً دفاعية، بل كانت حرب لقاء، لأن الحرب الدفاعية يتحمل فيها المدافع جميع أضرار الحرب، كما أن الحرب الهجومية تصيب العدو بالذعر والرعب، ويظهر فيها المهاجم بمظهر القوة، فيُرهب جانبه، ولا يطمع فيه طامع، ولذلك قيل: الهجوم يمنع الهجوم[٤].

---

(١) سبل الهدى والرشاد (٧/ ٥٧٩-٥٩٤)، وعيون الأثر لابن سيد الناس (٢/ ٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٦٦) (٢٨٥٢).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٦٧) (٢٨٥٣).

(٤) دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ، لمحمد رواس (ص٢٥٣).

[٤]

محمد ﷺ والجنـــد

حينما أُسر خبيب رضي الله عنه في سرية الرجيع، فبيع في مكة، اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، فكان خبيب يعرف مصيره، وأنهم أجمعوا على قتله، فبينما هو كذلك، احتاج إلى موسى - آلة الحلق - ليستحد بها، فاستعارها من بعض بنات الحارث، فأعارته، تقول: (فغفلتُ عن صبي لي، فدرج حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة، عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟! ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله)[١].

إنها صورة عظيمة تدل على الرحمة التي كانت عند هؤلاء الجند، حيث كان يلاطف هذا الصبي حين وضعه على فخذه، فلما رأى فَزَع أمه قال ما قال.

ثم قارن هذه الصورة بسرية غالب بن عبدالله رضي الله عنه إلى الكديد، حين أمره النبي ﷺ أن يشن الغارة على بني المُلوِّح، وفي طريقه إليهم، وفي منطقة قُديد، لقوا الحارث بن مالك، وهو ابن البرصاء الليثي فأخذوه، فأخبرهم أنه في طريقه إلى الرسول ﷺ ليسلم، فلم يطمئنوا إليه، فأوثقوه، واعتذروا إليه بأن رباط ليلة لن يضيره[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٣٧) (٤٠٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٦) (٢٦٧٨)، وسيرة ابن هشام (٤/ ١٩٠).

إنها صور رائعة تدل على الأخلاق الكريمة، والخصال الحميدة التي كان يتحلى بها هؤلاء الجند، ولا يطول عجبك حينما تعلم كيف كان قائدهم ﷺ يعاملهم به من كريم الأخلاق..!

- التواضع:

كان من تواضع النبي ﷺ إذا سار في غزو أو سفر، أن يكون في أخريات الناس[١]، أي آخر الركب، فلماذا؟!.

يقول جابر رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف المنقطع، ويدعو لهم[٢]، وكان أرفق الناس بهم في المسير[٣].

وحينما رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه في الشجاعة ونحوها، قال له النبي ﷺ: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**»[٤].

يقول المهلب: أراد ﷺ بذلك حض سعد على التواضع، ونفي الزهو على غيره، وترك احتقار المسلم في كل حاله[٥].

يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (كنا يوم بدر ثلاثة على بعير، وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما زميلي رسول الله ﷺ، فقالا: نحن نمشي عنك!! - يعني وأنت راكب - فقال: «**ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»)[٦].

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢١٨) (٣٠٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٤) (٢٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٦٣٩).

(٣) ذكر ذلك ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٩٦).

(٤) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٠٤) (٢٨٩٦).

(٥) كما في الفتح (٦/ ١٠٥).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٤١١). =

فلم يكن النبي ﷺ يترك جنوده يعانون من شدة الجوع، وشظف العيش، بل كان يشاركهم في السراء والضراء، يمشي إذا مشوا، ويركب إذا ركبوا، بل ويختار ما يكون شاقاً عليهم فيقوم به.

فها هو حين خرج إلى الخندق فوجد المهاجرين والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال لهم: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة**»، فقالوا: مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً[1]

بل كان يشاركهم، فكان ينقل التراب معهم حتى وارى التراب بياض بطنه، وهو يرتجز برجز عبدالله:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأعداء قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا[2]

كما كان النبي ﷺ يدعوهم للطعام، يقول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: لما حُفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خَمَصاً شديداً، فانكفيت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت إليَّ جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بُهيمةٌ داجن فذبحتُها، وطحنتِ الشعير، ففرَغَتْ إلى فراغي، وقطعتُها في بُرمتها، ثم وليتُ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته، فساررته،

=

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٧١): "رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة، وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح"، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣٩٠١).

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٥٤) (٢٨٣٤).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٨٦) (٣٠٣٤).

فقلت: يا رسول الله، ذبحنا بهيمة لنا، وطحنَّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ: يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سوراً[١]، فحيّ هلا بكم[٢]...

فلما جاؤوا إلى دار جابر رضي الله عنه، قال لهم النبي ﷺ: ادخلوا، ولا تضاغطو، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويُخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية، ثم قال للمرأة: «**كلي هذا، وأَهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**»[٣].

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يذهب هو ونفر قليل معه، ليأكلوا من طعام جابر، لكن أخلاقه الكريمة أبت إلا أن يشاركوه الطعام، ويا لروعة ما قال: «**إن جابراً صنع سوراً، فحيَّ هلا بكم**»، إن استخدام هذه الكلمة الفارسية، ونحن نعلم وجود سلمان الفارسي رضي الله عنه، يعد تلطفاً بهذا الضعيف الغريب، كما غمر تواضعه وحبه من بداخل الدار ومن خارجها، حين قال: «**كلي وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**»!!.

أين هذا مما يصنعه أصحاب الرتب العسكرية العالية اليوم، حين يستأثرون بلذيذ الطعام، أو وفير المال، ويتركون بقية الجند يكابدون الجوع والضمأ، ويعانون الفقر والحاجة؟!!.

وكان في غزواته يلاطف الجند ويؤانسهم ويعينهم، يقول جابر بن عبدالله رضي الله عنه: غزوت مع رسول الله ﷺ، فتلاحق بي النبي ﷺ وأنا على ناضح لنا قد أعيا، فلا يكاد يسير، فقال لي: ما لبعيرك؟ فقلت: أعيا، فدعا له النبي ﷺ وزجره، فما زال بين يدي

---

(١) سور: بضم المهملة، وسكون الواو، بغير همز، العُرس بالفارسية. [فتح الباري (٧/ ٤٦١)].

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٥٧) (٤١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٥٧) (٤١٠١).

الإبل قدامها يسير، فقال لي: كيف ترى بعيرك؟ قال: قلت: بخير، قد أصابته بركتك، قال: أفتبيعنيه، قال: فاستحييت، ولم يكن لي ناضح غيره، فقلت: نعم، فبعته إيَّاه على أن لي فقار ظهره حتى أبلغ المدينة، وقلت: يا رسول الله، إني عرس، فاستأذنته، فأذن لي، فتقدمت الناس إلى المدينة، فلقيني خالي فسألني عن البعير، فأخبرته بما صنعت به، فلامني، وقد كان رسول الله ﷺ قال لي حين استأذنته: «**هل تزوجت بكراً أم ثيباً؟**» فقلت: تزوجت ثيباً، فقال: «**فهلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك؟**» فقلت: يا رسول الله، توفي والدي ولي أخوات صغار، فكرهت أن أتزوج مثلهنَّ، فلا تؤدبهنّ ولا تقوم عليهنّ، فتزوجت ثيباً لتقوم عليهن وتؤدبهن، فلما قدم ﷺ المدينة غدوت عليه بالبعير...

فماذا تراه صنع نبي الرحمة مع جابر رضي الله عنه، قال جابر: فأعطاني ثمنه وردَّه عليَّ[(١)].

إنها قصة تتحدث عن نفسها، ملئها التواضع والرحمة، ولن أذكر مظاهر الرحمة تلك، لأني لو أردت ذكرها لأعدت القصة كاملة!!.

وحتى عند النصر والفتح يبقى هذا التواضع العظيم، فلما دخل مكة منتصراً جاء إليه الناس يبايعونه على الإسلام، ويسلِّمون عليه، فدخل عليه رجلٌ، فأخذته الرعدة، فقال له النبي ﷺ: «**هوّن عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**»[(٢)].

و(القديد): اللحم المملوح المجفف في الشمس[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٤١) (٢٩٦٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١١٠١) (٣٣١٢)، وقال في الزوائد: "هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات"، وأخرجه الحاكم (٣/ ٤٧-٤٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٣٢) (٢٦٧٧).

(٣) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٢).

عادة ما يُظهر القائد المنتصر لوناً من إثبات المجد، وشكلاً من أشكال التعالي، وربما لا يكترث بهموم الآخرين.

أما حبيبنا محمد ﷺ فلم يشغله أمر الفتح أن يتحسس من حوله بكل تواضع، ويزيد أن يثبت هذا التواضع بعبارات وكلمات تلين لها القلوب.

- المحبة والرحمة:

إن المتأمل لسيرة النبي ﷺ، والباحث لعلاقته بجنوده، يجدها تقوم على الحب المتبادل، فهو يحبهم، ويسعى لإسعادهم في الدنيا والآخرة، فأحبوه لذلك حباً لم يكن لأحد.

وها هو زيد بن ثابت حينما اشتراه أهل مكة ممن أسروه ليقتلوه بأحد قتلاهم الذين قُتلوا ببدر، فلما جهزوه للقتل سأله أبو سفيان أنشدك بالله يا زيد: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تُضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال رضي الله عنه: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[1].

بل أحبه النساء والرجال والأطفال والشيوخ على حد سواء، وها هي امرأة قد أصيب زوجها، وأخوها، وأبوها يوم أحد، فلما نُعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟! قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأُشيرَ إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة[2].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٩٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٣)، والبداية والنهاية (٤/ ٤٩).

وماذا عساه أن يكون قادهم إلى هذا الحب، إلا الحب الذي منحهم إياه ﷺ، وإليك هذه الصورة التي تعكس هذا الحب المتبادل.

ذاك ما كان يوم الأحزاب حينما تحالفت قوى الشر - قريش وغطفان وبني قريظة - على المدينة، فحاول النبي ﷺ أن يجنب شعبه المُحب مغبة هذا القتال، فحاول أن يفك هذا التحالف بفصل غطفان عن البقية، فبعث إلى قائدي غطفان، عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وعرض عليهم أن يعطيهم ثلاث ثمار المدينة على أن ينفصلوا عن قريش، ويعودوا إلى بلادهم(١)، فكاد الاتفاق أن يكون لولا أن النبي ﷺ قال: حتى أستأمر السُّعود - سادة الأنصار - فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود، فقال: إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم، وإن الحارث سألكم أن تشاطروه ثمر المدينة!!.

فقالوا: يا رسول الله، أوَحي من السماء، فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك وهواك، فرأينا نتبع هواك ورأيك، وإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا، والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «**فأنتم وذاك**»(٢).

---

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (٣/ ٢٧٨): "وفيه من الفقه جواز إعطاء المال للعدو، إذا كان فيه مصلحة للمسلمين".

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ١٣٣-١٣٤)، والبداية (٤/ ١٠٦)، وبعضه مما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٣٥-١٣٦). =

وفي غزوة ذي قرد حين أغار الفزاري على لقاح النبي ﷺ، فاستاقها، وقتل الراعي الغفاري، واحتملوا امرأته، فنجاها الله منهم على ما جاء في القصة، أقبلت المرأة على ناقة من إبل النبي ﷺ، حتى قدمت عليه المدينة، فأخبرته الخبر، فلما فرغت قالت: يا رسول الله، إني قد نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها، فقال ﷺ - وهو يبتسم -: «**بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها، ونجاك بها ثم تنحرينها! إنه لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين..**»(١).

• كما كان النبي ﷺ يواسي أهل الجند ويسليهم، ويشاركهم مصابهم، فحينما قدمت أمّ الرُّبيِّع بنت البراء أم حارثة بن سراقة على النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر - فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال: «**يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»(٢).

ويقول جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: جيء بأبي إلى النبي ﷺ، وقد مُثل به، ووضع بين يديه، فذهبت أكشف عن وجهه، فنهاني قومي، فسمع صوت نائحة، فقيل: ابنة عمرو - أو أخت عمرو - فقال لها النبي ﷺ: «**لِمَ تبكِ، أو: لا تبكي ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها**»(٣).

= وقال بعده: "ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات".

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ١٧٨-١٧٩)، وهو دون التبسم عند مسلم (٣/ ١٢٦٢) (١٦٤١)، وأبي داود (٣/ ٢٣٩) (٣٣١٦)، وأحمد (٤/ ٤٣٠)، والدارمي (٢/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣١) (٢٨٠٩).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٨) (٢٨١٦).

وكان يعلم اشتياق الجند لأهليهم، واشتياق أهليهم لهم، فيقول لهم بعد الفراغ من الغزو وانتهاء الحرب: «**من أحب أن يتعجل إلى أهله فليعجِّل**»[١].

بل لم يكن يستطيع إخفاء تلك الرحمة بالجند وأهلهم، ففي يوم مؤتة، يقول أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال لهم: «**أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان -، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم**»[٢].

وفي الصحيح أيضاً: أن النبي ﷺ لم يكن يدخل بيتاً بالمدينة غير بيت أم سُليم، إلا على أزواجه، فقيل له، فقال: «**إني أرحمها، قتل أخوها معي**»[٣].

فأي وفاء؟! وأي رحمة ينشدُها الجند والناس فوق ذلك؟!.

ومن رحمته بالصبيان: أنه كان لا يأذن لهم بدخول الحرب[٤]، فكانوا يتطاولون، ويتنافسون، ويعترض بعضهم بأنه لم يأذن له وأذن لفلان، وهو أضعف منه!!، فكان يرد بعضهم رحمةً بهم، ويجيز بعضهم رحمة بهم!! فلست أدري من أيهما أعجب، أَمِن حبهم للنبي ﷺ، واستماتتهم في الدفاع عن قضيته، ونصرة دينه، أم من رحمته ورقته التي أذهلتهم، فجعلت عزائمهم لا تلين، عندما ترى من يناوئه أو يعاديه؟!!.

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٧٧) (٢٨٦١).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٥٨٥) (٤٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٥٩) (٢٨٤٤).

(٤) قال ابن كثير في الفصول (ص١٦٤): "... لأن مناط إجازة الحرب كانت عنده ﷺ خمس عشرة سنة، فكان لا يجيز من لم يبلغها، ومن بلغها أجازه، فلما كان ابن عمر يوم أحد ممن لم يبلغها لم يجزه، ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازه...".

القسم الثالث

العـــدو

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[سورة التوبة، آية ١٥٩].

إن أقدام المشركين التي كانت تقف عند باب الغار، لو قُدر لها أن تخطو مع صفحات التاريخ لترى موضعها وترى موضعه، لعلمت أنها تائهة!! وأن أخلاقه التي منحه الله إياها قد نقلته من الغار إلى الانتصار!!.

مـدخــل

لو رأيت تلك الوجوه الوضيئة - محمد صلوات الله وسلامه عليه وصحبه الكرام - وقد عادوا من صلحٍ مع المشركين، سماه الله **(فتحاً مبيناً)** ذلكم هو **(صلح الحديبية)**، لو رأيتهم وقد امتلأت وجوههم من الإيمان والوضاءة، والإشراق والصفاء، وقد تلقوا ذلك الفيض الإلهي الجليل من الرضى والتكريم والوعد العظيم، فينظر بعضهم في وجوه بعض، فيرى أثر نعمة الهداية، وبركت مِنّة الاستقامة، لو رأيت كل ذلك، لعلمت أنه الحق من الحق - تبارك وتعالى -: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾[١].

وكنت أقرأ هذه الآية، فأقول في نفسي، في الآية سر بلاغي، وبديع تعبير قرآني، فإن الذين آمنوا معه من صفات الكمال بالنسبة لهم أن يوصفوا بأنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، إذ الشدة حين تكون في موضعها تكون من الصفات الحميدة.

أما هو ﷺ، فلو وصف بها لخالف ذلك قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[٢]، ولهذا كان **(محمد)** مبتدأ، و**(رسول الله)** خبر[٣].

وهكذا تمر به تلك الحالات المتكاثرة، من صدود الأعداء وعنادهم، فتنفطر لها قلوب أهل الإيمان، فيود أحدهم لو دعا الله على المشركين، فأهلكهم عن بكرة أبيهم، لبالغ أذيتهم لرسول الله ﷺ الذي يريد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، فيقول

---

(١) سورة الفتح، آية (٢٩).

(٢) سورة الأنبياء، آية (١٠٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٦٣)، وتفسير القرطبي (١٦/ ١٩٢)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٥٥)، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري (٢/ ١١٦٨).

المؤمنون: يا رسول الله، ادع الله على المشركين، فيقول: «**إني لم أبعث لعَّاناً، وإنما بعثت رحمة**»[١].

فيكون هذا الصلح - صلح الحديبية - وفيه من الشروط ما أبهج المشركين، وأحرق قلوب المؤمنين، ويسميه بعد ذلك ربنا العظيم (الفتح المبين)!! إذ كان بوابة (الفتح الأعظم) مكة شرفها الله، ليكون الأول فتحاً للأسماع، والثاني فتحاً للأبصار، ليصل ذلك المشهد بكامله إلى العالم بأسره، ليعلم أن هذه السيرة تسير بتأييد إلهي!!.

وها هو الزمان قد استدار، فأين هم المشركون؟! وأين هي مكة؟!.

وإليك شاهد عيان لذلك الصلح، إنه سهل بن حنيف: قال يوم صفين: (يا أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإنا كنا مع النبي ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا - وفي رواية: ولو أستطيع أن أرد أمر النبي ﷺ لرددته - فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: بلى، فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ أنرجع ولا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيِّعني الله أبداً.

فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيِّعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله، أوَ فتح هو؟! قال: نعم)[٢].

إنه ليس فتح لمكة فحسب!! إنه فتح لكل بني البشر، لو كانوا يعقلون!!.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٧٠٠٢) (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٢٤) (٣١٨١)، وأطراف الحديث.

ولا تزال صور الرحمة المحمدية العالمية تتوالى، ولا نذهب بعيداً عن الحديبية، ففي ذات الغزوة، يهبط ثمانين رجلاً متسلحين من جبل التنعيم عند صلاة الفجر، يريدون غِرَّة النبي ﷺ، فأمكن الله نبيه منهم، فأخذهم النبي ﷺ وأسرهم ثم أعتقهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[1][2].

لقد كان حال هؤلاء يقتضي القتل جزاء وفاقاً، لكن النبي ﷺ أراد أن يعطيهم فرصة الحياة، علَّهم أن ينالوا رحمة أرحم الراحمين، فيتوب الله على من يشاء.

وقد كان من حكمة الله ورحمته أن جَرَتْ سنته في رسله وأتباعهم أن يدالوا مرة، ويدال عليهم أخرى، ثم تكون العاقبة لهم، فإنهم لو انتصروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت الحكمة أن يجمع لهم بين هذا وذاك، ليتميز من يتبعهم ويطيعهم في كل الأحوال، ممن يتبعهم حال الظهور والغلبة فحسب.

لتظهر بعد ذلك أخلاقيات النصر والهزيمة، والعهد والمصالحة، فتقوم الحجة وينهض البرهان.

---

(١) سورة الفتح، آية (٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٤٢) (١٨٠٨)، وأبو داود (٣/ ٦١) (٢٦٨٨).

[١]

الصبر والعفو والحلـم

لم تكن العلاقات في نظر الدعوة المحمدية قائمة على فرض الحرب والصراع، وأن ذلك هو الحالة الدائمة بين جماعة المسلمين وغيرهم.

بل كانت في جميع أدوارها في المدينة أو مكة تعوِّل على البيان والحجة والأخلاق، ولم تلجأ إلى السيف إلا حينما يكون جهاداً مشروعاً نظيفاً له شروطه، ويكون كحالة طارئة، يسارع النبي ﷺ بحسمها، إذ لم تكن تلك الدعوة النيرة بحاجة إلى نقص السلم كي تعيش، فلها مقوماتها الصالحة لكل حال وزمان ومكان.

لكن تلك الدعوة النبوية الخيرة، كانت تواجه الصدود والإعراض، فكان لها في جميع مراحلها أعداءً أشراراً، شرقت حلوقهم بكلمة التوحيد، ولم تطق عقولهم الكليلة ترك ما كان عليه الآباء والأجداد، ولا هم يريدون التخلي عن المنصب والشهوة، حتى وإن كان لأجل الفضيلة، وصلاح المجتمع، فأخذوا يناصبونها العداء، كل منهم بطريقته، فانقسموا إلى أقسام، فأما من كان خارج المدينة، فأظهر تلك العداوة، فليس بحاجة إلى إخفائها، وأما من كان داخل المدينة، فأسرَّ عداوته وأخفاها، إذ كان همه الدنيا فحسب، مع التَّربُّص وتحيُّن فرص الفساد والإفساد والفتنة، ودس السُّم في العسل، وإلقاء العذرة في البئر!!.

فكيف تعامل النبي ﷺ مع هذه الطوائف؟!.

- (هم العدو فاحذرهم):

لقد كان لطائفة المنافقين دور كبير في عرقلة مسيرة الدعوة المحمدية، ومحاولة النيل من منهجيتها، ومن رموزها، بل من شخص النبي الكريم وعرضه الشريف ﷺ،

فكانت ألسنتهم بالأمس - كما أقلامهم اليوم - تحاول التحريض على الفتن، والسعي في إيجادها، كي لا تقوم لهذا الدين قائمة، فكان النبي ﷺ يصبر على أذيتهم، ويرى الأمور من بُعد آخر!!.

ففي غزوة بني المصطلق حين كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**»..

فقال عبدالله بن أبيَّ: أوَقد فعلوها؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل - يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرين - فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه.. لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**»(١).

لم يأذن النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتل عبدالله بن أبي بن سلول؛ لأن في قتله فتنة كبرى في الداخل والخارج، فله أقارب وأصدقاء، لم يدركوا حقيقته، ولهذا كان موقف الرسول الكريم ﷺ أن يصبر على أذاه حرصاً على وأد الفتنة؛ لأن الصبر الحكيم على المجرمين والمنافقين له ثمرته، فالزمن كفيل بفضح أمرهم، وإظهار حقيقتهم، حتى لأقرب الناس إليهم، ولهذا جاء ولد عبدالله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وأني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٨/ ٥٢٠) (٤٩٠٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٤) مسنداً.

وقال عبدالله لوالده عبدالله بن أبي: والله لا تنفلت - أي: لا ترجع - حتى تقر أنك الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل[١].

ولما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ومعه المسلمون، وقف عبدالله رضي الله عنه لأبيه عبدالله بن أبي بن سلول عند مضيق المدينة، فقال: قف، والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له، فأرسله حتى دخل المدينة[٢].

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذي يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، قال عمر رضي الله عنه: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[٣].

حقاً.. لقد أثمرت هذه السياسة الصابرة الحكيمة، فكشفت أوراقه وحقيقة أمره، فنفر منه كثير من الناس الذين خُدعوا به فترة من الزمن، وأصبح عندهم منبوذاً، لا يُرعونه بالاً، ولا يعيرونه اهتماماً، بل أصبح عندهم قتله مستساغاً!.

فكان النبي ﷺ يصبر على هؤلاء الأعداء، ولا يدخل في أحاديث طويلة معهم، لأن الكلام يجر بعضه فلا ينقطع، والمحاورة تستمر، والاشتغال بما هو أنفع أولى وأجدى، والحق يثبت والباطل يتجافى.

---

(١) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٩/ ١٥٥) (٣٥٣٤)، وقال الترمذي: "حسن صحيح"، وأصله في الصحيحين.

(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٥٩).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٥) تمام الخبر السابق.

وقد يقول البعض: أن هذه الطريقة لون من الضعف، فكان على رسول الله ﷺ أن يقطع رأس الأفعى، لا أن يملِّس جلدها بصبره عليهم، لكن سياسة رسول الله ﷺ مختلفة، ونظرته إلى الأمور أبعد، إنه ينظر إلى أن قطع رأس الأفعى التي لها فراخ يولِّد الكره له في فراخها، وهو ﷺ يريد أن يسوس شعبه ودولته بالحبّ لا بالسيف، فحيثما أمكن نثر بذور الحب امتنع استعمال السيف، وهذا ما جعل شعب دولة الإسلام في عهده متفانياً في الدفاع عن رسول الله ﷺ ودولته، فتلك هي سياسة احتمال الأذى، وتلك هي أخلاق الصابرين.

ألا إن سياسة الصبر والاحتواء، سياسة فذّة، لا يقدر عليها إلا السياسي الماهر الذي أعطاه الله من ضبط النفس، ومخالفة الهوى، الشيء الكثير.

- العفو عند المقدرة:

الصبر خُلق يحتاج إليه كل خُلق، فهو الدِّعامة الأساسية التي تقوم عليها الأخلاق في حال السلم والحرب، والعفو من تلك الأخلاق.

وقد ذكرنا قصة سلمة بن الأكوع، وأن النبي ﷺ قال له في آخر القصة - عندما استنقذ اللقاح -: «**يا ابن الأكوع، ملكتَ فأسْجِح**»[(١)]، قال ابن حجر رحمه الله: (والمعنى: قدرت فاعف)[(٢)].

كما قدمنا ذكر عفوه ﷺ للثمانين رجلاً المسلَّحين الذين أرادوا قتله عام الحديبية، بعد أن أمكنه الله منهم وقدر عليهم[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه في خلق (الإعداد المعنوي للجند) (العزم والتصميم والحكمة) (ص١٣٢).

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٢٩).

(٣) تقدم تخريجه قريباً في بداية القسم الثالث (العدو) (ص١٥٧).

وفي غزوة ذات الرقاع، يقول رجل أعرابي من المشركين، واسمه غورث بن الحارث الغطفاني لقومه: ألا أقتل لكم محمداً؟! قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، فأخذ يتتبع جيش الإسلام، فلما نزلوا في واد كثير الأشجار، وتفرقوا فيه للاستراحة تحت ظلال أشجاره، - إذ لم يكن ثمة قتال يذكر -، وكان النبي ﷺ قد جلس تحت ظل شجرة، وعلَّق سيفه بها، فجاء غورث الغطفاني في استخفاء، وختل حتى أخذ السيف وأصلته، ووقف على رأس النبي ﷺ، فقال: من يمنعك اليوم مني يا محمد؟! فنظر إليه رسول الله ﷺ، فقال: «**الله**»، فانهار الرجل، وسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقال له: «**من يمنعك مني اليوم؟!**» فقال: لا أحد، يا محمد، كن خير آخذ قدر، فقال: «**أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟**» قال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلَّى سبيله، فانطلق الرجل إلى أصحابه، وهو يقول: جئتكم من عند خير الناس[1].

يا ترى، هل لو قَتل النبي ﷺ هذا الرجل كان مُلاماً في قتله؟! لكنه العفو عند المقدرة، وفي هذه القصة دليل على صدق النبوة، حيث عصمه الله من هذا الرجل، والإشارة إلى خُلق من أخلاقيات الحرب، وهو أن القتال في الحرب للمقاتلين، فإنه حين قال: (ولا أكون مع قوم يقاتلونك) خلّى سبيله.

• ولما أرسل النبي ﷺ سرية محمد بن مسلمة إلى القُرْطاء، وبينما هم في طريق عودتهم إلى المدينة، لقيهم من أراد الله به خيراً، ذلكم هو ثمامة بن أثال الحنفي، سيد بني

---

(١) أوردته هكذا، قريباً مما أورده الجزائري في هذا الحبيب (ص١٩٤)، وهو بألفاظ متقاربة، قد أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٩٠) (٤١٣٥)، ومسلم (١/ ٥٧٦) (٨٤٣) و(٤/ ١٧٨٦) (٨٤٣)، وأحمد (٣/ ٣٦٥، ٣٩٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وأبو الشيخ في الأخلاق، برقم (٧٥).

حنيفة، فأسروه، وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فقال لهم النبي ﷺ: «**أتدرون من أخذتم؛ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إساره، ثم أتى إليه وقال: ماذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي خير، يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فتركه، ثم جاء إليه من الغد، فقال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ما قلت لك بالأمس، فتركه، حتى كان من الغد، فقال له: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «**أطلقوا ثمامة**»!!.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشّره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة، قال له قائل: أخرجت من دينك؟ فقال: بل أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى اليمامة، ومنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل[1].

لقد كانت تلك الأيام القليلة التي قضاها ثمامة بن أثال في المسجد أسيراً، بمثابة دورة سريعة للتعرف على الحقيقة التي كان يجهلها عن النبي ﷺ، فلما رأى تلك

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٢١٠-٢١١)، وأخرجها خلا بعض الألفاظ المثبتة البخاري، كما في الفتح (٧/ ٦٨٨) (٤٣٧٢)، ومسلم (٣/ ١٣٨٦) (١٧٦٤).

الأخلاق الكريمة، تخرَّج من تلك الدورة بشهادة التوحيد، فيا لها من شهادة تحمل في طيّاتها كل معاني النجاح للمعلم قبل التلميذ!!.

فأطلقه النبي ﷺ، ولم يفرح بقطعه الحنطة - طعام أهل مكة أعدائه - وإنما كتب إليه أن يخلي بينهم وبين حمله..

• ويزداد عفو هذا النبي الكريم ﷺ كلما ازدادت مقدرته، فيوم فتح مكة كان عفوه العام بقدر نصره المبين، فها هو الآن قد فتح مكة، ونصره الله، وتمكن منها ومن أهلها، وقبض على ناصية الجبابرة - الذين طالما آذوه وحاربوه - وهم لا يدرون ما يخبئ لهم، فيقول لهم: «**يا أهل مكة!! ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، عندئذ قال مقولته الشهيرة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»(١).

وفي رواية أنه قال لهم: «**مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾**»(٢)، قال عمر بن الخطاب - وكان قد توعد صناديد قريش -: (فانفضحت حياءً من رسول الله ﷺ)(٣).

هكذا عفا عمن تآمروا على قتله، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، وحاربوه كأشد ما كانت تعرفه الحروب، وفعلوا معه الأفاعيل، ومع ذلك كله يعفو عنهم هذا العفو العام!!.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ٤١)، وذكره أكثر أهل المغازي والسير، وعزاه السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا (ص٦٢) رقم (١٧٩) إلى حميد بن زنجويه في كتاب الأموال، وإلى النسائي من حديث أبي هريرة.

(٢) سورة يوسف، آية (٩٢).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق رقم (٨٢).

ولو لم يكن من كريم عفوه ورجاحة حلمه إلا ما كان منه هذا اليوم، لكان ذلك من أكمل الكمال، وأوضح البرهان على مبلغ حلمه وعظيم عفوه وصفحه.

وإنك لا تجد قائداً في العالم مهما بلغ من جلال الإنسانية، ورفعة العلم، وذروة الخلق يخاطب أعداءه الذين استباحوا قتله، وبعدما استباحوا من دماء المسلمين، يخاطبهم حين ظنوا أنهم ألقى عليهم قيود السلطة والجبروت، وأنهم أصبحوا أسرى في يديه، يفعل بهم من جنس صنيعهم أو أشد، يخاطبهم منكراً أنهم أسرى، أو مقيدين فيقول لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء[١].

لقد أطلقهم، ولم يعمل السيف في رقابهم، لكنه أعمل السيف في رقاب شيء آخر!! أتدرون ما هو؟! إنها أصنامهم التي كانوا يعبدون، وأوثانهم التي كانوا يصنعون، وشركهم وما كانوا يأفكون!!.

ألا فاشهدي يا جبال مكة.. اشهدي يا (فاران)! وحدثي التاريخ بما تعلمين، حديثهم بأن محمداً سحق أعداءه برحمته!! وأباد خضراءهم بعفوه ومنته!!.

- حلم النبوة:

الحلم فرع من فروع الصبر، ولذا قيل: إن الحلم هو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، مع القدرة على ذلك[٢]، وقيل: هو الطمأنينة عند سَورة الغضب[٣].

والحروب عادة ما تغير من أخلاق الرجال، أما حبيبنا ﷺ فالحروب والعداء لا يزيد أخلاقه إلا إشعاعاً ونوراً.

---

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، لآل بو طامي (ص١٧٢).

(٢) المفردات للراغب (ص١٢٩)، وتهذيب الأخلاق للجاحظ (ص٢٣).

(٣) التعريفات للجرجاني (ص٩٢).

وكان حلمه بأبي هو وأمي قائم على منهج اتخذه لنفسه، وهو إسقاط حق نفسه عن المؤاخذة، مهما كانت الإساءة، فكانت صور حلمه ﷺ على أعدائه، تفقد كل حليم حلمه!!.

يقول القاضي عياض رحمه الله: (لأن كل حليم قد عُرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً)[١].

كما يقول الماوردي في وصف حلمه ﷺ: (فكان أحلم في النِّفار، من كل حليم، وأسلم في الخصام من كل سليم، وقد مُني بجفوة الأعراب، فلم توجد منه نادرة، ولم يحفظوا عليه بادرة، ولا حليم غيره إلا ذو عثرة، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة، فإن الله تعالى عصمه من نزغات الهوى، وطيش القدرة بهفوة أو عثرة، ليكون بأمته رؤوفاً، وعلى الخلق عطوفاً، قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم، ومعرض عنهم، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تمالأ عليه الجلَّة والدُّون، فكلما كانوا عليه من الأمر أشد وألح، أعرض وأصفح، حتى قَهر فعفا، وقدر فغفر)[٢].

وتأمل في حلمه عن قريش وأهل الطائف، الذين بلغ إيذاؤهم له مبلغاً لا يطيقه غيره، فيرسل الله إليه جبريل عليه السلام فيقول له: «**إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟! إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال**

(١) الشفا للقاضي عياض (١/ ١٠٤).

(٢) أعلام النبوة للماوردي (ص٢٨٨).

له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[١].

فتأمل مبلغ حلمه على أعدائه الذين آذوه، وأغروا به سفهاءهم، فرجموه بالحجارة حتى أدموا عقبه، وردوا عليه رداً منكراً، ومع ذلك يحلم عنهم، فترى أن هذا حلم ليس وراءه حلم حليم!!.

وحينما تحداه أعداؤه بأن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحِّي عنهم الجبال، فيزرعون، فجاء الوحي مجيباً عن ذلك: «**إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نعطيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكتُهم كما أهلكتُ من قبلهم؟**»، فقال الحليم ﷺ: «**بل أستأني بهم**»[٢]، وهو يعلم أن شأنهم قد يطول، وعنادهم قد يستمر، بل وقتالهم له ومحاولة اغتياله قد تتكرر، ومع هذا يقول: «**بل أستأني بهم**»!!.

فأي حلم أكبر من هذا؟ إنه حلم عظيم بلا ريب ولا بدع؛ فهو حلم النبوة!!.

• هكذا كان حلمه ﷺ مع أعدائه قبل أن تكون بينه وبينهم الحروب، وقبل أن ينتقل إلى المدينة، وقبل أن يأذن الله له بالجهاد، فهل يا ترى تغير الحلم بعد ذلك؟!.

لا، بل أصبح أكثر وضوحاً، وأبلغ كمالاً، فها هو قد أصيب يوم أحد، إصابات كبيرة من أعدائه اللئام، حيث شجُّوا وجهه الشريف، وكسروا رباعيته، وفاطمة تمسح الدم عن رأسه ووجهه، وعلي يصب عليها الماء، ويراوده أصحابه أن يدعو عليهم، فيقول: «**إني لم أبعث لعّاناً، ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٣٦٠) (٣٢٣١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٥٨)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تعليقه على المسند برقم (٢٣٣٣).

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢١٤)، والشُعب (٢/ ١٦٤)، من حديث سهل بن سعد. =

وها هو عمير بن وهب - أحد المعروفين بشدة الأذية للنبي ﷺ وأصحابه - يجتمع مع رجل آخر من جنسه، هو صفوان بن أمية في حِجر الكعبة المشرّفة، ويتفقا على أن يقوم عمير بالسفر إلى المدينة، ويفتك بالنبي ﷺ، على أن يكفيه صفوان أمر دَينه وأولاده، فلما ضمن له صفوان ذلك، خرج من حينه إلى المدينة بسيفه الصقيل المسموم، فلما وصل إليها، وأبصره عمر رضي الله عنه لبَّبه، وقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب شيطان من شياطين قريش، ما جاء إلا ليفتك بك، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أرسله يا عمر**»، فأرسله، فقرّبه النبي ﷺ وكلّمه، وأخبره بما جرى بينه وبين صفوان في حجر الكعبة، فلما رأى النبوة، أسلم وشهد شهادة الحق، ثم انصرف إلى مكة مسلماً[(١)].

ولذلك كان عمير بن وهب يقول بعد ذلك لصفوان بن أمية، واصفاً النبي ﷺ بما هو فيه من الخلق العظيم، ليثنيه عما هو عازم عليه من الفرار، وذلك يوم فتح مكة: "يا صفوان، جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزُّه عزّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، فقال له صفوان: إني أخافه على نفسي، فقال: هو أحلم من ذلك وأكرم"[(٢)].

وفي غزوة خيبر أَرسَلتْ امرأة يهودية بشاة مسمومة للنبي ﷺ، فأكل منها، فجيء بتلك المرأة، فسألها النبي ﷺ عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما كان الله ليسلطك على ذاك، أو قال: عليّ**»، فقال الصحابة: ألا نقتلها؟

= وأصله في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود، كما في الفتح (١٢/ ٢٩٤) (٦٩٢٩)، ومسلم (٣/ ١٤١٧) (١٧٩٢).

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٠-٢٢٢) مطولة.

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٤٤).

فقال عليه الصلاة والسلام: لا، يقول أنس: فما زلت أعرفها - أي: الأكلة - في لهوات[١] رسول الله ﷺ[٢].

بقي أثر تلك الأكلة ليقول لسان حالها للناس: انظروا إلى حلم من لم تعرف الدنيا - ولن تعرف - كحلمه ﷺ.

ولذلك لم يجد أعداؤه بد من الاعتراف بهذا الحلم العظيم، حتى أن أبا سفيان الذي كان يقود الجيوش لمحاربته يقف يوم الفتح بين يديه ليقول: "بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك"[٣].

إن المرء حين يبتلى بعدوٍّ له في دينه ودنياه، فيطغى عليه ويتكبر، ويسطو عليه، فيؤذيه في ذاته ودينه، ثم بعد ذلك يظفر به، فيحلم عنه، ويعفو عن جرمه، يكون بذلك قد جمع الفضائل من أطرافها، لكن هذا في تاريخ البشر نادر عزيز.

فلم تظهر صورة الحلم والعفو الكاملة في تاريخ أي دين من الأديان، حتى جاء النبي ﷺ، ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطَّلة إلى الأبد[٤].

---

(١) اللهوات: جمع لهاة، وهي اللحمات في سقف أقصى الفم، النهاية (٤/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٥/ ٢٧٢) (٢٦١٧).

(٣) السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء لابن حبان البستي (ص٣٢٩)، وصححه ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٢٤٨) (٤٣٦٢).

(٤) المثل الأعلى في الأنبياء للأستاذ خوجه كمال الدين (ص٢٢٧).

[٢]

الوفـــاء

لم تكن معاملة النبي ﷺ تختلف - في كمالها الخُلقي - باختلاف أحواله سلماً وحرباً، بل ولا باختلاف من يتعامل معهم من أتباع أو أعداء، بل كانت معاملته مع الجميع تتبع معياراً موحداً، من ذلك الكمال الخُلقي الذي سوَّى في التعامل بين العدو والصديق، في حالتي الرضا والغضب، والسلم والحرب.

ولذلك عامل أعداءه كما يعامل أولياءه، عدلاً في الحكم، وصدقاً في التعامل، ووفاء بالعهد، وهذا ما لم تكد تعرفه الإنسانية في أوقات الحروب، إلا حين بعث الله رسوله ومصطفاه ﷺ.

ومن ذلك: ما كان النبي ﷺ يقره من التبادل الدّبلوماسي بين دولة الإسلام والدول الأخرى، وكان من سياسته ووفائه أنه راعى الأعراف المرعية في استقبال الرسل والوفود، والحفاظ على أرواحهم، وحمايتهم، فثبت عنه أنه قال لرسولي مسيلمة الكذاب: «**أما والله، لولا أن الرسل لا تقتل، لضربت أعناقكما**»[(١)].

كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إني لا أخيس بالعهد - أي: لا أنقضه - ولا أحبس البُرُد**» أي: الرسل[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٨٣) (٢٧٦١)، وأحمد (٣/ ٤٨٨)، وصححه الألباني، كما في صحيح سنن أبي داود (٢٧٦١)، وانظر: فيما يتعلق بالرسل، زاد المعاد (٣/ ١٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٨٣) (٢٧٥٨)، وأحمد (٦/ ٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٧٥٨).

بل إنه اعتبر قتل الرسل بمثابة إعلان الحرب، فكان سبب معركة مؤتة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه، فاشتد ذلك على النبي ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، ووفاءً للحق ورسوله الحارث بن عمير، جهّزَ النبي ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، فكان ما كان يوم مؤتة[1].

أما العهود والمواثيق: فكان النبي ﷺ يوليها عناية بالغة، تنم عن مكارم الأخلاق التي بعث بها، وكان النبي ﷺ يقدر تماماً أن المحافظة على تلك العهود يجعل الناس يأمنون على حياتهم ومصالحهم، وأمر معاشهم، ولذلك كان يَعد نقضها من دناءة الخُلق، وسوء الطوية.

- المعاهدة الوفية والسياسة النبوية:

حين وصل النبي ﷺ المدينة، كان بها طوائف من اليهود، هم بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وكان النبي ﷺ يعلم ما هم عليه من المكر والغدر والخيانة، لكنه عاهدهم، ليظهر الله الحق بهذا العهد، ويكون النبي ﷺ غير ملام على ما يفعل بهم، كما يتيح له ذلك فرصة أكبر في تشييد قواعد الدولة الجديدة.

وكانت - كذلك - قلوب بعض طوائف المؤمنين متفرقة متباينة، فالأوس والخزرج ذوو عهد قريب بقتال دامٍ كاد يفنيهم، فقلوب بعضهم لبعض فيها ما فيها من الإحن والشحناء.

---

(١) الرحيق المختوم (ص٤٥٩).

وكانت مع النبي ﷺ طائفة من المهاجرين الغرباء الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم، فأصبحوا عالة على إخوانهم المؤمنين، فكان لا بد من توحيد صفوف كل من كان بالمدينة، حتى يقدروا على القيام بأعباء تكوين دولة الإسلام، التي يأمن فيها الجميع.

فبفكرة حكيمة أبرم النبي ﷺ معاهدة مع هذه الطوائف المختلفة جاء فيها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس،....، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغُ - أي: لا يهلك - إلا نفسه، وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف،...، وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة...**»[1]، إلى آخر ما جاء فيها.

لقد كانت تلك المعاهدة العظيمة بحق؛ وثيقة جديرة بالإعجاب، جمعت بين العقل السليم، والتصرف الحكيم، والخُلق القويم.

وقد قرر فيها النبي ﷺ حرية العقيدة لغير المسلمين، وحرية الرأي، وحرمة البلد، وحرية الحياة، وحرية المال، وبذلك سبق نبي الرحمة ﷺ إلى تقرير حقوق الإنسان.

فكان لهذه المعاهدة أثر قوي في جعل المجتمع المسلم قوة موحدة، وقفت أمام تجمعات أعدائها مواقف حاسمة، تُوجت في آخر المطاف بالنصر المؤزر.

ولقد وفّى رسول الله ﷺ بكل الالتزامات والبنود التي نصت عليها هذه المعاهدة.

---

(١) سبق تخريجها في التمهيد (الاستقرار الداخلي مطلب) (ص١٩).

وكما عاهد النبي ﷺ اليهود، عاهد القبائل الأخرى، التي كانت خارج المدينة، ليؤمن لجند الإسلام طريق تنقلاتهم، فكان يمكن لتلك القبائل المتفرقة أن تعوق انتشار دعوة الإسلام لولا تلك المعاهدات.

فكان النبي ﷺ يفي كل الإيفاء مع تلك القبائل، حتى تكون هي التي تنقض، فتجر على نفسها الويل، فيكون النبي ﷺ منها في حل.

- نقض اليهود للعهود:

لم تستطع اليهود أن تصمد أمام وفاء النبي ﷺ، فغلبت عليهم طبيعتهم الدنيئة، ورجعوا إلى الوقيعة والخيانة والدس في صفوف المسلمين، واستعملوا في ذلك عملائهم المندسين في صفوف المسلمين من المنافقين.

• فأما يهود بني قينقاع، فإنهم قد ضاقوا ذرعاً بنصر الله تعالى، الذي أيد الله به رسوله والمؤمنين في بدر، فأظهروا الحسد والحقد الدفين، فقالوا لرسول الله ﷺ بعد أن دعاهم إلى الله، وحذّرهم عقابه، كما عاقب قريشاً، قالوا: يا محمد إنك ترى أنَّا قومك؟! لا يغرنَّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس[1]، هكذا يقولون بكل سفاهة وغرور!!.

ومثل هذا القول المفعم بالكراهية والبغضاء، ليدل بكل وضوح على ما يبيتون من عداوة ومكر وخيانة، لكن النبي ﷺ لم يشأ أن ينقض العهد، ولا أن يبادرهم بالحرب، لما جُبل عليه من عظيم الخُلق، حتى كان النقض الصريح منهم، وذلك لَّما اعتدوا على

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ١٥٤) (٣٠٠١) وحسن ابن حجر إسناده، كما في الفتح (٧/ ٣٨٦) عند شرح حديث (٤٠٢٨)، وهو في سيرة ابن هشام (٣/ ٥).

المرأة المسلمة، فكشفوا سوأتها، ثم قتلوا من غار وثأر لها من المسلمين[١]، وذلك نقض صريح للعهد، لا يحتمل الإغضاء عنه، وحينئذ لم يكن بد للنبي ﷺ من أن يناجزهم الحرب، دفاعاً عن الفضيلة، وعفة النفس، بعد أن نقضوا العهد بأقبح طريقة.

• وأما يهود بني النضير، فإن نقضهم كان بمحاولة الغدر الفاشل الذي دبروه لاغتيال النبي ﷺ، لما جاءهم وكلمهم أن يعينوه في دِيَّة الرجلين الذين قتلهما خطأ أحد أصحابه، وهو عمرو بن أمية الضَّمري، وذلك بمقتضى المعاهدة التي أجراها معهم، فقالوا له: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض وسوَّل لهم الشيطان، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرَّحا ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جِحاش: هو يفعل، فقال لهم سلاّم بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخبَرنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه ﷺ من ربه تبارك وتعالى، بما همُّوا به، فنهض مسرعاً، وتوجه إلى المدينة ولحق أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك!! فأخبرهم بما همَّت به يهود.

عندئذ بعث إليهم رسول الله ﷺ أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنونا بها، وقد أجَّلتكم عشراً، فمن وجدته بعد ذلك ضربت عنقه[٢].

وفي هذا غاية الرحمة منه ﷺ بهم، وهي رحمة لم تعهدها بنو إسرائيل في كل تاريخ حياتهم.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ١٠٨)، والطبقات لابن سعد (٢/ ٥٧)، وزاد المعاد (٣/ ١٢٧)، ومغازي الواقدي (١/ ٣٦٣)، وقد ذكر بعض أهل العلم أسباب أخرى لهذه الغزوة، انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٤١٧).

• أما يهود بني قريظة، فكان مكرهم كباراً، وشأنهم ناراً وشراراً، حيث اتبعوا أسلوباً خفياً خطيراً، فلم تعلن نقض العهد إلا بعد أن دبرت لاستئصال شأفة المسلمين، واستباحة بيضتهم، وذلك بتحريضها قبائل العرب المختلفة على جمع صفوفها، واتحاد كلمتها لغزو المسلمين في عُقر دارهم، بجموع كثيرة لا قبل للمسلمين بها، ثم تنقضُّ يهود على المدينة فتستحل من فيها من نساء وأطفال وعجزة، وبذلك يقضى على رسول الله ﷺ والمسلمين معه، فلما تم ليهود بني قريظة ما أبرمته بتجميع الأحزاب حول المدينة بعشرة آلاف مقاتل، عندئذ نقضت العهد، وتنكّرت للمواثيق، وتأهبت لدخول المدينة للقضاء على النساء والضعفة.

ولما خذل الله تعالى تلك الأحزاب، ورد الذين كفروا بغيظهم، بما ألهم الله به نبيه والمؤمنين من حفر الخندق، وتخذيل نعيم بن مسعود، ثم ما أصابهم من البرد الشديد والريح، سُقط في أيدي بني قريظة!!.

لقد كانت تلك الخيانة العظمى التي حاكها اليهود وشحذت لها همم القبائل، وشدت من أزرها، وشاركت فيها، بالإضافة إلى التَّعرُّض لحريم رسول الله ﷺ، والتأهب للانقضاض على عورات المسلمين، بمثابة جريمة قد حسرت عن رأسها، وقالت: أنا فعلتها فمن يقتلني؟!!.

ولذلك أمر الله نبيه عندما رجع من الخندق ووضع السلاح، أن لا يضع السلاح، وأن يخرج إلى بني قريظة[١].

فاستجاب الرسول ﷺ لأمر ربه، وقال: «**لا يصلينَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة**»[٢]، فأسرع الصحابة للاستجابة لأمر رسول الله ﷺ، فما صلى بعضهم العصر إلا

---

(١) سبق تخريجه في التمهيد (لماذا قاتل محمد ﷺ) (ص٢٤).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٤٧١) (٤١١٩).

في بني قريظة بعد العشاء الآخرة، حملاً لظاهر اللفظ، وتأول فريق منهم الأمر، فصلوها في وقتها، وقالوا: إنما أراد سرعة الخروج، فلم يعنّف واحدة من الطائفتين[١].

وأعطى النبي ﷺ الراية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما وصلوا ضربوا عليهم الحصار، وتراموا بالسهام والنبال، ومكثوا في الحصار خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد عليهم الحصار رضوا بأن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس تشفع فيهم، فقال لهم: «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟**»، فقالوا: بلى، قال: «**فذلك إلى سعد بن معاذ**»، قالوا: قد رضينا.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم، لجرح أصيب به في الخندق، فلما جاء وأكثرت عليه الأوس من طلب الرفق بهم، قال لهم: (لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم)، فلما وصل قالوا له: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنَّ الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرِّجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله، من فوق سبعة أرقعة**[٢]»[٣].

---

(١) وفي هذا رحمته ﷺ بجنده ورفقه بهم، وأن القائد حين يعلم اجتهاد الجند، وحرصهم يعذرهم، وإن لم يكن ما أراد.

(٢) الأرقعة: السموات.

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ١٤٥-١٤٦)، وزاد المعاد (٣/ ١٣٣)، وأصله في الصحيحين، عند البخاري، كما في فتح الباري (٧/ ٤٧٥) (٤١٢١)، ومسلم (٣/ ١٣٨٨) (١٧٦٨).

إن قوماً بلغوا مبلغ بني قريظة في الفساد والخيانة والغدر والكفر، لا ينبغي التأخر لحظة واحدة في تقديمهم لجزائهم العادل، وانظر إلى رأس الأفعى الذي أرداهم، حيي بن أخطب لعنه الله، يقول للنبي ﷺ حينما قُدِّم ليضرب عنقه: أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب، ثم أقبل على الناس، وقال: أيها الناس!! إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل!! ثم جلس فضربت عنقه[1].

لقد كان ذلك الحكم فيهم هو عين العدل الذي لا ينبغي غيره، ولذلك لم يشكُّوا في عدالة حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه وأنهم يستحقون العقاب، وهو عين الحكمة كذلك؛ لأن أمثال هؤلاء لن تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد، وهو عين الرحمة بالمؤمنين المسالمين الذين طالما نالتهم سهام ذلك الغدر وسياط تلك الخيانة.

- خُلق المنابذة:

لقد أدب الله نبيه وكل مؤمن، بالتزام العهد والوفاء به، فقال جل ذكره:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾[2]، كما يعلم ربنا الحكيم ما تريده بعض طوائف الكفر والعِداء للإسلام من المعاهدة، فإن منهم من يجعل تلك المعاهدة كثوب أنيق تنطوي تحته الخيانة، ويختبئ خلفها المكر، فشرع (المنابذة) فقال لنبيه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[3].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ١٤٧).

(٢) سورة الإسراء، آية (٣٤).

(٣) سورة الأنفال، آية (٥٨).

يقول ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً ﴾ أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك)[1].

فـ (المنابذة) إذن مرحلة تأتي بعد المعاهدة، وذلك بإعلان نقضها، وإعلام العدو بذلك، ويصار إليها عند ظهور دلائل حقيقية للغدر، بأن تظهر علامات الخيانة أو آثارها.

فيا لله ما أعظم هذا الدين!!.

فإن هذه الآية تأمرنا: أن لا نجاري الكفار في طريقة نقضهم للمواثيق والعهود عن طريق الغدر والخيانة، بل بطريق الإعلان الصريح عن نبذ المعاهدة، لنكون وإياهم على سواء في العلم بالإيذان بالقتال، وذلك غاية ما يكون من الصدق والشجاعة والثبات والوفاء، إذ قد يشم المسلمون رائحة الغدر، ويرون خيوط المؤامرة، فيبادرون بنقض العهد والميثاق، وهذا ما لا يرتضيه دين الإسلام، فأدَّبهم ربهم بخلق المنابذة، فهل رأيت في أخلاقيات الحروب على مر صفحات التاريخ أجمل من هذا؟!.

وقد تمثل النبي ﷺ هذا الخُلق من قوله وفعله، وقام به على وجهه الأكمل، وكان أتباعه على هذه الجادة.

فعن سليم بن عامر أنه قال: كان بين معاوية رضي الله عنه وبين الروم عهد، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون، وهو يقول:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٧).

الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا، فإذا به عمرو بن عبسة ﷺ فأرسل إليه معاوية، فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدَّ عقدةً ولا يحلها، حتى ينقضي أمدُها، أو ينبذ إليهم على سواء**»، فرجع معاوية بالناس[1].

أما من فعله عليه الصلاة والسلام، فإنه لما كان فتح مكة في العام الثامن عاهد فيه النبي ﷺ عهداً عاماً بينه وبين الناس من أهل الشرك: أن لا يصد عن البيت أحدٌ جاءه، ولا يُخاف أحد في الشهر الحرام، كما عاهد بعض قبائل العرب هناك عهوداً خاصة إلى آجال مسماة، فلما أراد الله تطهير بيته الحرام، فكشف الله له سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون، فعلم ما كانوا يريدون من غدر وخيانة، وأنزل الله عليه صدر سورة براءة، نبذ إليهم على سواء، وذلك في العام التاسع، حين بعث أبا بكر ﷺ أميراً على الحج في تلك السنة، ودعا علي بن أبي طالب ﷺ ليؤدي عنه هذا النبذ، ويتلو عنه هذا الإعلان، فقال ﷺ لعلي بن أبي طالب ﷺ: «**اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته**»، فخرج علي بن أبي طالب ﷺ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر ﷺ قال: أأمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج، التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب ﷺ فأذن بالناس بالذي أمره به ﷺ، فقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد

---

(١) أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٥/ ١٦٩) (١٦٢٩)، وقال: "حسن صحيح"، وأبو داود (٣/ ٨٣) (٢٧٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٧٥٩).

العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد، فهو إلى مدته، وأجَّل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم، أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك، ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة، فهو إلى مدته[١].

فنجد هنا: أن العهد الذي كان إلى مدة أبقاه إلى مدته، وأما العهد العام فنبذه، ومع ذلك لم يبغتهم بهذه المنابذة، بل أعطاهم فرصة كبيرة مدتها أربعة أشهر كاملة، ليختاروا لأنفسهم ما أرادوا من الدخول في الإسلام أو التأهب للقتال، وذلك حين علم منهم أمر الخيانة والغدر.

فأصبحنا بعد كريم أخلاقه ﷺ نتذوق وفاء المعاهدة، كما نتذوق وفاء المنابذة، فنجد لكل منهما طعم رائع يميزه عن الآخر، ولولا تلك السيرة العطرة لما فرقنا بين تلك الأصناف.

- صلح الحديبية[٢]:

قبل أن ننتقل إلى صلح الحديبية، يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: ما منعني أن أشهد بدراً، إلا أني خرجت أنا وأبي حُسيل، قال: فأخذَنا كفار قريش، وقالوا: لعلكم تريدون

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/ ١٣٩-١٤٠)، طبقات ابن سعد (٢/ ١٦٨)، وأصل خبر الأذان بأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان عند البخاري، كما في الفتح (٨/ ١٦٨) (٤٦٥٥)، وانظر: تفسير صدر سورة براءة عند ابن كثير وغيره.

(٢) قال في معجم البلدان (٢/ ٢٢٩): "الحديبية بضم الحاء، وفتح الدال، وياء ساكنة، وباء موحدة مكسورة، وياء اختلفوا فيها، فمنهم من شددها، ومنهم من خففها،...، وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة،...، سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وبعضها في الحل وبعضها في الحرم".

محمداً؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال: «**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**»(١).

أما الحديبية فكان من شأنها عجباً!!.

فإن النبي ﷺ خرج هو وأصحابه لأداء العمرة، وذلك في العام السادس من الهجرة، وحين علم بخروج قريش، وأنهم لبسوا جلود النمور، لصد رسول الله ﷺ ومن معه عن المسجد الحرام، سلك طريقاً وعرة عبر ثنية المِرار، وهي مهبط الحديبية، وعندما اقترب الرسول ﷺ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رضي الله عنهم: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «**ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية..**».

فكان ما كان من قصة المفاوضة وكتابة الصلح، الذي كانت شروطه قاسية على المسلمين؛ إذ لم تطقه قلوب أولئك الأحرار، ولكنهم استجابوا لأمر رسول الله ﷺ، وعادوا، وقد طالهم الحزن، وعلتهم الكآبة والانكسار، لا سيما أن كان من تلك الشروط القاسية التي كانت بين النبي ﷺ ومندوب قريش لإجراء المفاوضة - وهو سهيل بن عمرو - أن من أتى المسلمين من المشركين رده رسول الله ﷺ إليهم، ومن أتى قريشاً من المسلمين لم يردوه، فقال المسلمون عند كتابة هذا الشرط: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل ابن سهيل بن عمرو أبو جندل رضي الله عنه يَرسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤١٤) (١٧٨٧).

المسلمين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه، وأخذ بتلابيبه، وقال: يا محمد، قد لجَّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، وهو أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال له النبي ﷺ: صدقت، فرده إليهم، فجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته، يا معشر المسلمين، أأُرد إلى المشركين يفتنوني في ديني!!.

يا لها من صرخة تقطع القلوب، وتهز الوجدان، ولكن هيهات أن تؤدي إلى إخلال بالوفاء من صاحب الخلق العظيم!!.

فما كان منه ﷺ إلا أن قال لأبي جندل: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم**».

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون[1]...

• كما كان من وفاء النبي ﷺ لقريش بهذا الشرط، إرجاعه إليهم أبا بصير رجل من قريش جاء وهو مسلم، وذلك حينما أرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى بلغ ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيد!!، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت!! فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال النبي ﷺ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعراً**»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتل

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠٢-٢٠٤)، وأصله في الصحيحين، كما عند البخاري، كما في الفتح (٥/ ٣٨٨) (٢٧٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٠٩) (١٧٨٣).

والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله، أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «**ويل أمِّه، مِسْعَرُ حرب**[١]، **لو كان له أحد**»، فلما سمع الجندي الذكي قائده الوفي يقول ذلك، عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر[٢]، وانفلت منهم أبو جندل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لهم، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم[٣].

فنجد هنا: أن قريشاً ناشدته الله والرحم، ولم تناشده الوفاء بالعهد؛ لأن هذا لم يكن نقضاً للعهد من النبي ﷺ، إذ كان تصرف أبي بصير من عند نفسه، لا بأمر النبي ﷺ، بل كان عازماً على رده.

وحتى ما وقع من أبي بصير قبل ذلك من قتل رسول قريش العامري، يقول ابن حجر: (وقد وقع عند ابن إسحاق، أن سهيل بن عمرو لما بلغه قتل العامري طالب بديته؛ لأنه من رهطه، فقال له أبو سفيان: ليس على محمد مطالبة بذلك؛ لأنه وفّى بما عليه، وأسلمه لرسولكم، ولم يقتله بأمره، ولا على آل أبي بصير شيء؛ لأنه ليس على دينهم)[٤].

---

(١) يقال: سعرت النار والحرب إذا أوقدتها. [النهاية (٢/ ٣٦٧)].

(٢) سيف البحر: بكسر المهملة، وسكون التحتانية بعدها فاء، أي ساحله، وعين ابن إسحاق المكان، فقال: "حتى نزل العيص"، وهو بكسر المهملة وسكون التحتانية، وكان طريق أهل مكة إذا قصدوا الشام. [فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٤١٣)].

(٣) سبق تخريجه في قصة أبي جندل قريباً (ص١٨٢).

(٤) فتح الباري (٥/ ٤١٤).

وهكذا كانت قريش هي من طالب إسقاط هذا الشرط المجحف من عند نفسها، وهكذا تكون عاقبة الوفاء، والأخلاق الكريمة دائماً وأبداً.

• ولا زال النبي ﷺ وفياً بشروط ذلك الصلح، إذ كان من شروطه أن لا يدخل مكة ولا يطوف بالبيت ذلك العام، فإذا كان عام قابل، خرجت قريش من مكة وأخلتها، فدخلها محمد ﷺ بأصحابه، فأقام بها ثلاثاً، ليس معهم إلا سلاح الراكب، والسيوف في القِراب[١].

وهذا عين ما وقع في عمرة القضاء، حتى إذا مضى الأجل أتوا علي بن أبي طالب، فقالوا له: قل لصاحبك اخرج عنا، فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ[٢].

ويستمر ذلك الوفاء، إلى أن كانت قريش هي من نقض العهد، وذلك أنه كان أحد شروط الصلح، أن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده من القبائل يدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم[٣].

ومقتضى ذلك: أن من دخل في عقد أحد الفريقين له حقوق العقد، وعليه التزاماته، وإلا عُدَّ عدم التزام ذلك نقضاً للعهد.

غير أن قريشاً استجابت لطلب حلفائها من بني بكر لمعاونتهم في إصابة ثأر لهم في خزاعة من قبل ظهور الإسلام، فأعانتهم بالسلاح والكراع والرجال، ودسُّوا ذلك سراً لئلا تحذر خزاعة، وخزاعة غارُّون آمنون لحال الموادعة، ولما حجز الإسلام بينهم، ثم

---

(١) القِراب: غمد السيف والسكين، ونحوهما. [لسان العرب (١/ ٦٦٧)].

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٧/ ٥٧٠) (٤٢٥١).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٢٠٣).

اتعدت قريش وبنو بكر (الوتير)[١]، فوافوا للميعاد، فيهم رجال من قريش من كبارهم، متنكرون مُنتقبون: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، وشيبة بن عثمان، وأجلبوا معهم أرقاءهم، فبيتوا خزاعة ليلاً وهم غارون آمنون، وعامتهم نساء وصبيان وضعفاء الرجال، ولم يزالوا يقتلونهم، حتى دخلت خزاعة أنصاب الحرم، واحتموا بدور نفرين من الخزاعيين، وأطلع الله نبيه بما حصل من قريش من نكث للعهد، ثم لم تمض ثلاثة أيام حتى جاء وافد خزاعة إلى النبي ﷺ، ينعى قتلاه، وينشد النصر قائلاً:

يـــا رب إني ناشـــد محمـــداً ... حِلـــفَ أبينـــا وأبيـــه الأتلـــدا
إن قريـــشاً أخلفـــوك الموعـــدا ... ونقـــضوا ميثاقـــك المؤكـــدا[٢]

ومع ذلك كله، بعث النبي ﷺ إلى قريش يخيرهم بين ثلاثة أمور، إما أن يبرءوا من حلف بني بكر، أو يدوا قتلى خزاعة، أو أني أوذنكم بحرب، فرفضوا الأول والثاني.. وقالوا: ولكن نؤذنه بحرب[٣]، ثم ندمت قريش على هذا الخيار، فبعثت بأبي سفيان ليجدد العهد[٤]، ولكن بعد ماذا، فقد فات الأوان، ونُقض العهد، وقرعت قريش طبول الحرب.

---

(١) الوتير: اسم ماء بأسفل مكة، لخزاعة. [معجم البلدان (٥/ ٣٦٠)].

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٢٢-٢٦)، وزاد المعاد (٣/ ٣٩٤)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٣٠٦)، وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٦٦).

(٣) ذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) (٤٣٦١)، وقال: هذا مرسل صحيح الإسناد، وانظره: في سبل الهدى والرشاد (٥/ ٢١٠).

(٤) وقصة طلب أبي سفيان تجديد العهد، ورفض النبي ﷺ بعد أن نصر من استنصره، في سيرة ابن هشام (٤/ ٢٧)، والبداية (٤/ ٢٧٤) وغيرها.

وهكذا كان النبي ﷺ يبقى على خلق تعظيم الوفاء بالعهود، حتى يُفاجأ بنقض العهد ممن عاهدهم، سواء كانوا يهوداً أو مشركين.

- أخلاقيات الحديبية والبراعة الحربية:

ثمة أخلاق أخرى نستفيدها من الحديبية غير خلق الوفاء بالعهد، وما كان معه، ولقد هتف الوفاء بالفطنة والذكاء، فإليك ما يلي:

١- المعرفة الدقيقة لخصائص العدو وصفاته، ومزايا الشخصيات القيادية فيه، وقراءة نفسياتهم، وخريطة تفكيرهم.

فإن النبي ﷺ حين أرسلت له قريش سيد الأحابيش الحليس للمفاوضة، قال: إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي، وفي أعناقه قلائده، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى النبي ﷺ إعظاماً لما رأى، وأخبرهم بالذي رآه، وأخبرهم بأن عليهم أن يخلو بين محمد وبين الكعبة، فأيده بعضهم، لكن زعماء المشركين قالوا له: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصد عن بيت الله من جاء معظماً له!!. والذي نفس الحليس بيده، لتُخلنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد.

وهكذا كان لهذا التصرف الحكيم من النبي ﷺ أثره على العدو، حيث بُني على معرفة بمعادن قادة الأعداء، وطريقة تفكيرهم، فكان ذلك بمثابة حرب نفسية، وإعلامية ضد العدو!!.

فلما أصرت قريش على موقفها، بعثت بمكرز بن حفص ليكلم النبي ﷺ، ويأتيهم بما سمع منه، فلما رآه النبي ﷺ قال للمسلمين: هذا رجل غادر(١).

ولقد صدَّق مكرز ما قاله فيه ﷺ، ففي أثناء تبادل السفراء بين المسلمين وقريش، قاد خمسين من رجال قريش وتسلل خلسة ليصيب من المسلمين غرةً وغدراً، ولكن النبي ﷺ والمؤمنين كانوا له بالمرصاد، فأسروهم(٢)، وصدَّقه مرة أخرى حين كان مكرز مع من نكث العهد من بني بكر حين أغاروا على خزاعة، في قصة نقضهم للعهد الماضية قريباً.

وحين أرسلت قريش سهيل بن عمرو، فرآه النبي ﷺ، قال للمسلمين: قد سهَّل الله لكم من أمركم، قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

إن معرفة نفسيات العدو وقادته على وجه الخصوص، ومنهجيتهم وطريقة تفكيرهم، بل وإمكانياتهم، ليتيح للقائد الفطن أن لا تخطئ فراسته، فتصيب أو تقاربه.

ومن ذلك: أن النبي ﷺ حين دخل مكة، وكان يعرف من أبي سفيان حبه للفخر، قال: «**ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»(٣).

٢- بالرغم من الشروط القاسية على المسلمين، إلا أن النبي ﷺ غلب جانب مصلحة الدعوة العامة على أفراد منها، فإن النبي ﷺ رأى أن هذا الصلح يحمل شرطاً

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ١٩٩-٢٠٠)، وأصله في الصحيحين كما مر معنا في قصة أبي جندل في صلح الحديبية، وهو عند أحمد في المسند (٤/ ٣٢٣-٣٢٨)، والذي في صحيح البخاري أنه قال: "هذا رجل فاجر"، لكن ابن حجر رجح رواية ابن إسحاق "غادر"، وتعجب من وصفه بالفجور، مع أنه لم يقع منه في الحديبية، انظر: الفتح (٥/ ٤٠٣).

(٢) مغازي الواقدي (٢/ ٦٠٢)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٢٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٠٨) (١٧٨٠).

في صالح دعوته الخيرة، ألا وهو: أن تضع الحرب أوزارها عشر سنين، يأمن فيه الناس بعضهم بعضاً.

فإن هذا الشرط يمكِّن له ﷺ الدعوة إلى الله، وكذلك إعداد القوة، فإن عشر سنين كافية لإنجاز شيء كبير من ذلك.

فإن كانت الأخرى، وهو نقض العهد والميثاق من قبل المشركين وحلفائها، كما وقع، كان في ذلك إسقاط لمكانة قريش بين القبائل، وتشويه لصورتها، وقتل لمعنويات جنودها، فإنهم حين يشعرون أنهم هم من نقض العهد، فإنهم غالباً سيكون جانبهم هو الأضعف، وذلك بمقاييس الإنسانية الحقة.

٣- تعليم الجنود الانضباط، وعدم مخالفة أمر القائد الحازم البصير في أمر يعزم عليه، فمثل هذا القائد جدير بالثقة بعد أن يمحضوه النصح، ويبادلوه الرأي، فإن عزم بعد ذلك على أمر، كان عليهم أن يطيعوه، فالرسول ﷺ حينما وافق على صلح الحديبية بما يحمله من شروط، تبين بعد ذلك أنها كانت في مصلحة الدعوة، وأن الصلح كان فتحاً سياسياً، فإن عدد المؤمنين بعد هذا الصلح ازداد في سنتين أضعاف من أسلم قبله[1].

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٧١).

[٣]

من أحكام الحرب وآدابهـا

حينما نريد أن نتحدث عن أحكام الحرب في الإسلام، سوف نجد أن ذلك موروث أخلاقي ضخم، تحدثت عنه كتب الفقه والأحكام في صفحات كثيرة، وهذا يقف شاهداً عدلاً على أن الإسلام لم يغادر جانباً من جوانب الحياة إلا وقد نظّمه أروع تنظيم، ووضعه في مكانه من البنيان الإسلامي العظيم، وأبان عن حكمه وحكمته، فأقام بذلك قواعد الحق والعدل والرحمة في دعوةٍ عامة للناس جميعاً، تحقق للإنسان كرامته وإنسانيته، وتحفظ له حقوقه في حال السلم والحرب.

وإذا ما كانت الحرب نفسها ضرورة اجتماعية، قد فرضت نفسها، فإن السيرة النبوية تقيد هذه الضرورة بعدم العدوان والتجاوز، وتحاول تعجيل شأن العدو بالتسليم الكامل أو الجزئي بأسرع وقت ممكن.

ومن هنا: تأتي أهمية ربط أحكام الحرب الفقهية بالسيرة النبوية، يقول ابن القيم رحمه الله: (وأخذ الأحكام المتعلقة بالحرب، ومصالح الإسلام وأهله وأمره، وأمور السياسيات الشرعية من سيره ومغازيه - يعني: النبي ﷺ - أولى من أخذها من آراء الرجال، فهذا لون، وتلك لون، وبالله التوفيق)[1].

- التخيير للعدو:

لم يقاتل نبينا ﷺ ليكره الناس على الدخول في الإسلام، ولم ينتشر الإسلام بحد السيف كما يفتريه أعداؤه، لكنه كان لا بد لنشر هذا الدين الذي هو من عند الله من قوة تحمي أتباعه، ومن يرغب في اعتناقه، لتكون - تلك القوة - بمثابة جهاز المناعة داخل

(١) زاد المعاد (٣/ ١٤٣).

الجسد، الذي يقاوم الأمراض، ثم يطرحها، فإذا ما ضعف ذلك الجهاز تواردت على الجسد العلل من كل نوع.

وقد كان النبي ﷺ حين يبعث أحداً من أصحابه لأمر ما، يقول لهم: «**بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا**»(١).

كما كان النبي ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول له: «... **وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**»(٢).

وقد قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه لجند كسرى يوم نهاوند: (أمرنا نبينا رسول ربنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية)(٣).

وقد بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى دومة الجندل، فأخذ أكيدر دُومه(٤)، فصالحه على الجزية، وحقن له دمه(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٥٨) (١٧٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٥٦) (١٧٣١)، وأبو داود (٣/ ٣٧) (٢٦١٢) من حديث بريدة.

(٣) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ٢٩٨) (٣١٥٩).

(٤) **دومة الجندل**: وهي على سبع مراحل من دمشق، بينها وبين مدينة رسول الله. [معجم البلدان (٢/ ٤٨٧)]. وأكيدر دومه ملكها.

(٥) أخرجه أبو داود (٣/ ١٦٦) (٣٠٣٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٠٣٧).

والجزية: هي مبلغ من المال أو ما يقوم مقامه، يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم في كل عام، لإقامته بدار الإسلام، سواء من أهل الكتاب أو غيرهم[١].

وحين ننظر إلى مقدار هذه الجزية، نجد أنه قليل، ولا يكون إلا في العام مرة، ولا تؤخذ من الصبي ولا المرأة، ولا زائل العقل، ولا الفقير، ولا الشيخ الفاني، ولا الزَمِن، ولا الأعمى، ولا يشترط أن تكون من الذهب والفضة، يدل على ذلك: أن النبي ﷺ حين بعث معاذاً إلى اليمن، أمره أن يأخذ من كل حالم - يعني: محتلماً - ديناراً أو عدله من المَعَافريِّ، وهي ثياب تكون باليمن[٢].

كما لا ينبغي التشديد فيها، لدرجة التعذيب، فإن هشام بن حكيم بن حزام وجد رجلاً، وهو على حمص يُشمِّس ناساً من القبط، لم يؤدوا الجزية، فقال: ما هذا؟! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**»[٣].

وقد ذكر العلماء: أن المأخوذ منهم الجزية على ثلاث طبقات، فيؤخذ من أدونهم اثني عشر درهماً، ومن أوسطهم أربعة وعشرون درهماً، ومن أيسرهم حالاً ثمانية وأربعون درهماً.

إن كثيراً ممن يسمع بالجزية، ولا يعرف تفاصيل أحكامها، يظن أنها لون من التشديد والإجبار، لكنه حينما يعلم تفاصيلها، يجد فيها الرحمة والعدل، لاسيما حين

---

(١)) انظر: المغني لابن قدامة (١٣/ ٢٠٢)، وفقه السنة لسيد سابق (٣/ ١٧٢)، وهي تؤخذ من كل الأمم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم، سواء كانوا عرباً أو عجماً، وقد كان أكيدر دومه عربياً، وانظر تفصيل الخلاف في المغني (١٣/ ٢٠٣-٢٠٧).

(٢) أخرجه النسائي (٥/ ٢٦) (٢٤٥٠)، وأبو داود (٣/ ١٦٧) (٣٠٣٨) وغيرهم، وصححه الألباني، كما في صحيح سنن أبي داود (٣٠٣٨).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠١٧) (٢٦١٣)، وأبو داود (٣/ ١٦٩) (٣٠٤٥)، وكان أمير حمص آنذاك عمير بن سعد الأنصاري.

يعلم أن الحكمة منها أن يختلط غير المسلمين بالمسلمين، فتظهر لهم محاسن الدين، وأسرار حِكمه وأحكامه!!.

بل قد ذكر العلماء: أن المرأة لو أرادت دفع الجزية، لابد أن تُخْبَر أنه لا يجب عليها ذلك، فيا لله! أي أخلاق نغترفها من تلك الحروب؟!!.

وبعد ذلك إن أبو دخول الإسلام، ثم أبو دفع الجزية، كان قتالهم قتال الرحمة...

- التفريق بين المقاتلين وغير المقاتلين:

أرسى النبي ﷺ القاعدة الأساسية في التفرقة بين المقاتلين من الأعداء الذين توجَّه إليهم الأعمال الحربية، فيحل قتلهم، وغير المقاتلين الذين لا توجَّه إليهم الحرب، فلا يحل قتلهم، فَقَصَر القتال على الذين يقاتلون حقيقة أو حكماً، وهم العسكريون ومن في حكمهم، ومنع من قصد قتل المدنيين، الذين لا يشتركون في القتال؛ وإن كانوا جميعاً يشتركون في صفة العداء للمسلمين.

ولذا نجد.. أن النبي ﷺ ينكر صراحة وينهى عن قتل النساء والصبيان[١].

بل إنه في أحد الغزوات حين رأى الناس مجتمعين على امرأة قد قتلت، قال: «**ما كانت هذه لتقاتل**»، ثم أرسل فوراً إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وكان على المقدمة: «**أن لا يَقتُلنّ امرأة ولا عسيفاً**»[٢]، والعسيف: هو الأجير، ويروى أنه كان يقول: «**انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٦/ ١٧٢) (٣٠١٤)، ومسلم (٣/ ١٣٦٤) (١٧٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٣) (٢٦٦٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٦٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٨) (٢٦١٤) ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٣) (١٨٥١٣)، وفي إسناده خالد الفزر، قال عنه في التقريب: مقبول، لكن البيهقي في السنن (٩/ ١٥٤) (١٨١٥٥) خرج =

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً**»(١).

وكان ينظر في المقاتلة، فمن رآه أنبت قتله، ومن لم ينبت لم يقتله(٢).

وقد بعث النبي ﷺ سرية يوم حنين، فقاتلوا المشركين، فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاءوا قال رسول الله ﷺ: «**ما حملكم على قتل الذرية؟**» قالوا: يا رسول الله، إنما كانوا أولاد المشركين، فقال: «**وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟! والذي نفس محمد بيده، ما من نسمة تولد إلا على الفطرة، حتى يعرب عنها لسانها**».

وفي رواية أنه قال لهم: «**ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية**»(٣).

ومن خلال هذه النصوص، وكذلك سيرة الخلفاء الراشدين، نعلم تحريم قتل النساء والصبيان، وكبار السن، والعجزة، والعمال، ومن يعمل بالزرع والفلاحة، فكان

= عن علي بن أبي طالب نحوه، ثم قال: "في هذا الإسناد إرسال، وضعف، وهو بشواهده مع ما فيه من الآثار يقوى".

قلت: ولا يعارضه ما أخرجه الترمذي، كما في تحفة الأحوذي (٥/ ١٧٢) (١٦٣٢)، وأبو داود (٣/ ٥٤) (٢٦٧٠) من حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً: "اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرخهم"، فإن الشرخ: الغلمان الذين لم ينبتوا، والشيوخ: الرجال الأقوياء، أهل النجدة والبأس، لا الهرمى الذين لا قوة لهم، على أنه أيضاً من رواية الحسن عن سمرة، والعلماء يذكرون أنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة.

(١) سبق تخريجه في (التخيير) قريباً، في وصية للأمراء، وهو من حديث بريدة (ص١٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ١٤١) (٤٤٠٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٤٠٤).

(٣) أخرجه بروايتيه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٣٥) (٤/ ٢٤) من حديث الأسود بن سريع، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣١٩): "رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح".

النهج واضحاً في أنه لا يصح القصد بالأذى لمن ليس شأنه القتال، لكن هذا الحكم قد يختلف حينما يكون أحد هؤلاء من المقاتلين حقيقة أو حكماً.

فيجوز قتل النساء حين تشارك مع العدو في القتال، أو يتترس بها العدو، أو بالصبيان مثلاً، ففي غزوة بني قريظة شاركت امرأة يهودية في القتال، فقتلت أحد الصحابة، بأن ألقت من سطح المنزل على رأسه حجراً ضخماً فقتلته، فأمر النبي ﷺ بقتلها بضرب عنقها بالسيف، وهي التي عجبت عائشة رضي الله عنها من شأنها، تقول عائشة: لم يقتل من نسائهم - يعني: بني قريظة - إلا امرأة واحدة، والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قالت: قلت لها: ويلك، ما لك؟! قالت: أُقتل، قلت: ولم؟! قالت: لحدث أحدثته، فانطلق بها، فضرب عنقها، فكانت عائشة تقول، فوالله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد علمت أنها تقتل[1].

وكذلك إذا شارك الشيخ الفاني في القتال برأيه وخبرته، فإنه يعد مقاتلاً ويقتل، ففي غزوة حنين خرج دريد بن الصِّمّة وقد بلغ مائة وستين عاماً مع هوازن يشير عليهم في أمور القتال، فاعترض على مالك في اصطحابه النساء والذرية والأنعام، ونصحه أن يرجعها، ووافق مالك بن عوف قائد هوازن في اختيار موقع معسكر المشركين، ومدحه ونصحه بالتزامه، ولهذا أقر النبي ﷺ قتل دريد بن الصِّمَّة، الذي بلغ مائة وستين سنة؛ لأنه كان يعين العدو في القتال برأيه وخبرته، فقتله الزبير بن العوام رضي الله عنه، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فلم ينكر عليه[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٤) (٢٦٧١)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود (٢٦٧١)، وهو في سيرة ابن هشام (٣/ ١٤٧)، وقال ابن هشام: وهي التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته.

(٢) رأي دريد بن الصِّمَّة، عند ابن هشام في السيرة (٤/ ٦٠-٦١). =

ومن خلال سيرة النبي ﷺ تكون القاعدة: أن القتل في الحرب يكون للمقاتلين حقيقة، بمشاركتهم بأنفسهم مع جند العدو، أو حكماً بإمدادهم العدو بالرأي والمكيدة ونحو ذلك.

أما المدنيين وغير المشاركين في الحرب، فلا يجوز قتلهم، فبالله عليكم أين تلك الأخلاقيات الرحيمة، من قسوة الحروب الحديثة، التي يكون فيها قتل النساء والأطفال، بل هدم الدار على رأس من فيها؟!!.

- العبث والإفساد في الأرض:

كما حرمت شريعة محمد ﷺ التمثيل بالعدو قبل موته، أو بعد موته، فقال النبي ﷺ: «**ولا تمثلوا**»[(١)]، ومعنى التمثيل: قطع الأذن أو جدع الأنف، أو فقئ العين، أو كسر الرأس، أو قطع الأطراف، أو بعضها ونحو ذلك.

ولما أراد المشركون أن يشتروا جسد رجل من المشركين قد مات، أبى أن يبيعهم[(٢)].

ويروى أنهم قالوا: ابعث إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً، فقال رسول الله ﷺ: «**لا خير في جسده، ولا في ثمنه**»[(٣)]، وربما قال لهم: «**وادفعوا إليهم جيفتهم، فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية**» فلم يقبل منهم شيئاً[(٤)].

=

وقتل الزبير له أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٨٢)، وقال: "رواه البزار وفيه علي بن عاصم بن صهيب وهو ضعيف لكثرة غلطه، وتماديه فيه، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات"، لكن ابن حجر حسن إسناده، وذكر الاختلاف في قاتل دريد". [انظر: الفتح (٧/ ٦٣٨)].

(١) تقدم قريباً أنه في مسلم من حديث بريدة.

(٢) أخرجه الترمذي كما في تحفة الأحوذي (٥/ ٣٠٧) (١٧٦٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٤).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٢٤) (١٨٣٥٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٤٨).

ومما يجدر ذكره: أن المشركين في غزوة أحد قد مثلوا بجثة حمزة ﷺ تمثيلاً بشعاً، تشمئز منه النفوس الآدمية، فبقروا بطنه، وأخرجوا كبده، ولاكته هند زوجة أبي سفيان قائد المشركين يومها، وجدعوا أنفه، كما بقروا بطون كثير من قتلى المسلمين، وجدعوا أنوفهم، وقطعوا آذانهم، ومذاكير بعضهم، وقد مكن الله المسلمين من المشركين، فلم يمثلوا بقتلاهم، بل قد عفا الرسول ﷺ عن قاتل حمزة، ومن مثل بجثته!!

كما لا يجوز تحريق العدو بالنار عندما يُقدر عليه، فقد روى حمزة الأسلمي ﷺ، أن النبي ﷺ أمَّره على سرية، فقال له: «**إن أخذتم فلاناً فاقتلوه، ولا تحرّقوه، فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار**»(١).

وكذلك لا يجوز أثناء الحرب إتلاف المزروعات والأشجار، والتحريق، وقتل الدواب، على وجه الإفساد في الأرض.

ولذا قال النبي ﷺ: «**من قتل صغيراً أو كبيراً، أو أحرق نخلاً، أو قطع شجرة مثمرة، أو ذبح شاة لإهابها(٢)، لم يرجع كفافاً**»(٣).

والمعنى: أي لا يرجع لا له ولا عليه، بل يرجع مثقلاً بالذنوب لما ارتكبه، وهكذا جاء في وصية أبي بكر الصديق ﷺ لجيش أسامة ﷺ، لكن إحراق الأصنام جائز، أو إذا كان أنكى للعدو وفيه مصلحة ظاهرة جاز أيضاً، ويرجع في ذلك - تبعاً للحاجة والمصلحة - لرأي الإمام، وقد أمر النبي ﷺ جريراً ﷺ أن يحرِّق ذي الخلصة الذي

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٤) (٢٦٧٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٦٧٣) من حديث حمزة الأسلمي، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قريباً منه، كما في الفتح (٦/ ١٧٣) (٣٠١٦).

(٢) الإهاب: الجلد، أي ذبح الشاة لأجل جلدها.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣٢٠): "رواه أحمد وفيه راو لم يسم وابن لهيعة فيه ضعف".

كان بيتاً في خثعم يسمى كعبة اليمانية[١].

وحرَّق النبي ﷺ نخل بني النضير وقطع[٢]، لقطع أمرهم بالنصر، وإجبارهم على الاستسلام، وتيئيس العدو من المقاومة حقناً للدماء، وتعجيلاً بنهاية أمد الحرب، وتنفيراً لهم من المدينة، وذلك حين نقضوا العهد كما مر معنا، وقال قتادة والضحاك: أن التي قُطعت وأُحرقت ست نخلات، بل قال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة!! فيحتج أهل الكتاب على النبي ﷺ، ويقولون: يا محمد، ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر؟ وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟!.

فشقّ ذلك على النبي ﷺ، ووجد المؤمنون في أنفسهم من ذلك حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا، وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾[٣][٤].

فكان في الآية تسلية لكلتا الطائفتين، وأن القطع والترك بإذن الله.

إن هذه الآية مع سبب نزولها، مع ما احتج به أهل الكتاب، تعطينا أفقاً أوسع في التعامل مع مواقف الحرب، وأن الأعداء كثيراً ما يحتجون بما ظاهره الحق، وباطنه من قِبَله العذاب، فلو قُدِّر لهم وتمكّنوا لأهلكوا الحرث والنسل، لاسيما وقد ظهرت بوادر ذلك الأكيدة بنقض العهد، والتورط بعلاقات مشبوهة بالمنافقين والمشركين.

فتأتي هذه الآية لتفتح مجالاً للاجتهاد لقادة المسلمين، والتعامل في الحرب بما يقتضيه الموقف، وإلا فقد يَجرُّون أذيال الندم في ساعة لا ينفع فيها الندم!!.

---

(١) سبق تخريجه في (الإعداد المعنوي للجند) (التفاؤل والتشجيع والثناء) (ص١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، كما في الفتح (٥/ ١٢) (٢٣٢٦).

(٣) سورة الحشر، آية (٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦)، وأصل سبب النزول، وأنه في بني النضير عند البخاري، كما في الفتح (٨/ ٤٩٧) (٤٨٨٤)، وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٠٩).

[٤]

الأســـرى

لم يعد سراً نفشيه أمر أولئك الأسرى الذين تتابعهم منظمات حقوق الإنسان، فالأخبار توافينا عنهم بما يَخْجَلُ من ذِكره العقلاء، حتى فضح أمرهم تلك الدول التي تزعم في كل محفل واجتماع أنها تقيم الحرية وترعى الحقوق!!.

أما حبيبنا المصطفى ﷺ، ففي سيرته ما يبهج النفس ويثلج الصدر ويسر الخاطر.

فبادئ ذي بدء، سَدَّ الإسلام طريق الأسر التي كانت متبعة من قبل، كالنهب، والاختطاف، والسرقة، وجعلها في حالة واحدة عند قتال الأعداء.

ولذلك عرَّفَ الماوردي رحمه الله الأسرى فقال: (هم الرجال المقاتلون من الكفار، إذا ظفر المسلمون بهم أحياء)[١].

وبهذا تعلم: أن النساء والولدان إن ظفر بهم لا يكونون أسرى ينطبق عليهم ما ينطبق على الرجال، وإنما يكونون من ضمن المغانم التي يغنمها جيش الإسلام، فيُسترقوَّن.

كما أن الأسر ليس مقصوداً لذاته كما هو الشأن في القتال نفسه، ولكن لما يكون فيه من إضعاف العدو.

- الإطعام والكسوة والمحاورة والإحسان:

ذكر الله في كتابه المبين: أن إطعام الأسير من صفات المؤمنين الأبرار، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[٢].

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي (ص١١٤).

(٢) سورة الإنسان: آية (٨).

وحين نأتي لسيرة نبينا ﷺ، نجده تمثل هذه الآية، حتى غدى النموذج الأمثل الذي يجب أن يحتذى في معاملة الأسرى.

فها هو حين أُسر ثمامة بن أثال قال لأصحابه: «**أحسنوا إساره**» ثم رجع النبي ﷺ إلى أهله فقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام، فابعثوا به إليه، وأمر بلقحته - وهي: الناقة التي لها لبن - أن يُغْدَى عليه بها ويُراح، ثم أخذ يحاوره بكل لطف على مدى ثلاثة أيام، حتى قال في اليوم الثالث: «**أطلقوا ثمامة**»[١]!!.

لقد أحسن إليه وأطعمه وحاوره، ثم منَّ عليه بأن أطلقه، فلم يملك ثمامة إلا أن انقلب من ذروة العداوة إلى قمة الصداقة!!.

• وحدَّث عمران بن حصين رضي الله عنه فقال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل، فأسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عَقيل، وأصابوا معه العضباء فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، فقال: يا محمد، فأتاه فقال له: ما شأنك؟ فقال: بم أخذتني؟ وبم أخذتَ سابقة الحاج[٢]؟ فقال (إعظاماً لذلك): «**أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف**» ثم انصرف عنه فناداه. فقال: يا محمد.. يا محمد! وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً. فرجع إليه فقال: ما شأنك؟ قال: إني مسلم. قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك**[٣]**، أفلحت كل الفلاح**» ثم انصرف. فناداه فقال: يا

---

(١) تقدم تخريجه في خُلق (العفو عند المقدرة). (ص١٤٨).

(٢) أراد بذلك العضباء فإنها كانت لا تُسبق أو لا تكاد تسبق.

(٣) معناه لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر، حين كنت مالك لأمرك، أفلحت كل الفلاح، لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر، فكنت فزت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك، وأما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك، ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمن والفداء.

محمد.. يا محمد! فأتاه فقال: ما شأنك؟ قال: إني جائع فأطعمني، وظمآن فأسقني. فقال: «**هذه حاجتك**» ففدي بالرجلين[١].

فانظر كيف كان عليه الصلاة والسلام يلبِّي نداءات ذلك الأسير، ويحاوره في مشروعية أسره، وأنه مأخوذ بظلم حلفائه، ثم يطعمه ويسقيه، ويحسن رعايته، مما يجعل الأسير يشعر بطمأنينة البال، وهدوء النفس واستقرارها وعدالة قضية أسره.

• ولما جيء بالسَّفَّانة ابنة حاتم الطائي أسيرة، وقالت لرسول الله: يا رسول الله: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنُن عليَّ مَنَّ الله عليك، قال: من وافدك؟ قالت: عديّ بن حاتم قال: الفارّ من الله ورسوله؟ فتركها ثم مضى، فلما كان في اليوم الثالث قال لها رسول الله ﷺ: «**قد فعلتُ، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني**» فلما قدم من تثق به من قومها جاءت فقالت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة وبلاغ، قالت: فكساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقة، قالت: فخرجت معهم حتى قدمت الشام[٢]...

فانظر إلى مبلغ إكرام النبي ﷺ لهذه الأسيرة، حيث أعتقها من غير فداء، وأكرمها بالكِساء، والنفقة التي تُبلِّغها إلى مقصدها وبلادها، ثم اطمأن على سلامتها ببعثها مع من تثق بهم من قومها، وهكذا فليكن الخُلق والإكرام!!.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٦٢) (١٦٤١).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٦٧)، وذكرها ابن حجر في الإصابة (٤/ ٣٢٩) وقال:" أخرجه أبو نعيم من طريقه، وأخرج قصتها الطبراني، وسماها وأوردها الخرائطي في مكارم الأخلاق... وفي سنده من لا يعرف ".

• كما كان النبي ﷺ ينهى عن التفريق في الأسرى، بين الوالدة وولدها، ويقول: «**من فرّق بين الوالدة وولدها، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة**»[١].

وكان يؤتى بالسبي، فيعطي أهل البيت جميعاً كراهية أن يُفرَّق بينهم[٢]. بل انظر إلى تلك المعركة الأولى الفاصلة، التي كانت بدراً كاسمها في إظهار الحق ونصرته، فقد أسر فيها النبي ﷺ سبعين من ألد أعدائه، وكانت أول المعارك وأقربها من تاريخ سخريتهم بدعوته، واستهزائهم بها، وأذيتهم للمؤمنين، ومع ذلك لم يتشف بالانتقام من أولئك الأسرى، بل عاملهم بخير ما يحبون من الرأفة والرحمة والإحسان، وأوصى أصحابه بهم فقال: «**استوصوا بالأسارى خيراً**»[٣].

فكان لتلك المعاملة الحسنة والوصايا بها أثرها البالغ على نفوس أولئك الأسرى، ونفوس أصحابه أيضاً، وإليك هذه الصورة من موقع الحدث يذكرها أحد الأسرى في بدر، وهو أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، إذ يقول: كنت في الأسرى يوم بدر عند رهط من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز والبر، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها على أحدهم، فيردها على ما يمسكها[٤]!!.

---

(١) أخرجه الترمذي كما في تحفة الأحوذي (٥/ ١٥٤) (١٦١٣) وأحمد (٥/ ٤١٣، ٤١٤) والحاكم (٢/ ٥٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١١٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٠٩) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٩): " رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن ".

(٤) المصادر السابقة، لأن راوي حديث: «استوصوا بالأسارى خيراً» هو أبو عَزيز بن عمير رضي الله عنه.

يا لها من استجابة رائعة وصورة معبرة تدل على تلك الأخلاق النابعة من مشكاة النبوة، المنبأة بأحوال الخلق وسجايا الأنفس، فإن الأسرى غالباً ما يكون أسرهم ونيران الحرب لا زالت مستعرة، وربما كان بعض من أُسر قد قَتل الكثير من جيش المسلمين، فيكون الاعتداء عليهم متوقعاً وغليظاً لشدة الغيظ وزيادة الحنق، فالنبي ﷺ وهو يضرب لنا الأمثال السامية في تلك الحروب، يمنع من إيذاء الأسرى، ويأمر بإكرامهم منعاً لتلك الروح الانتقامية أن تتحرك لتتشفى.

- الإحسان لا ينافي التخير في الحكم:

إن الغاية من أخذ أسرى الحرب، هي إضعاف شوكة العدو عن استمراره في مواصلة عدوانه على دولة الإسلام وحماية المسلمين، ولذلك كان الحكم فيهم منوطاً بالإمام الأعظم، لينظر في أمرهم بما يوافق المصلحة العليا لحماية دولة الإسلام ورعايتها، فيحكم فيهم طبقاً لتلك المصلحة، وأسباب تلك الحروب وظروفها وآثارها.

ذلك أن الوقوع في الأسر لا يعني صدور عفو دائم عن الجرائم التي اقترفها الأسرى أيام حرياتهم، فكان لا بد أن تطبق عليهم العدالة الكاملة، التي لا تنافي الرحمة الشاملة، جزاء لهم على فعلهم، ليكون ذلك الجزاء رادعاً لأمثالهم من المستهزئين بالقيم، واللاهين وراء الطغاة، والعابثين بالحريات، والمناصبين الدعاة إلى الله الحرب والعداء.

والنبي ﷺ وهو الإمام الأعظم، والقاضي الملهم الأحكم، كان ينظر في أسرى الحرب تبعاً للمصلحة، فكثيراً ما يمنّ على الأسرى بغير فداء ولا عوض، وربما منَّ على آخرين بفداء، وتارة يقتل أو يسترق.

قال ابن القيم رحمه الله: (كان يمن على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كلَّه بحسب المصلحة)[١].

- القتل لشِرار الأسرى:

نبدأ بالأثقل من الأحكام ثم ننتقل إلى الأخف، ليظهر لنا كيف أن النبي ﷺ مع رأفته ورحمته بالبشر، كان متكافئ الأخلاق لا يطغى عنده خُلق على خُلق، بل كان كل خُلق من أخلاقه كاملاً في موضعه، عظيماً في وصفه، لا يصلح في موضعه غيره، لذلك فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يعامل كل أسير بما يستحق من المعاملة اللائقة به، والتي لا ينبغي في عُرف القانون الأخلاقي غيرها.

وقد يضطر الطبيب الماهر لبتر عضو من أعضاء الجسد، ليبقى الجسد صحيحاً بعد ذلك، فيكون هذا رحمةً به، فالمحافظة على بقية الجسد أولى من ترك ذلك العضو الذي يسري داءه فيذهب معه بالجسد.

ولذلك نهج النبي ﷺ منهج الأنبياء قبله، وهو الذي يحبه الله ويرضاه، حيث قتل بعض الأسرى الذين كان لهم ماض حافل بالأذية لله ورسوله والمؤمنين، ومحاربة الدعوة بكل ما أُوتوا من قوة، ومحاولة الوقيعة بدولة الإسلام ورجالها، بالإضافة إلى الغدر والكذب والخيانة.

فنجد - مثلاً -: أنه أمر بقتل أبي عَزَّة الجُمحي الشاعر الذي كان قد منَّ عليه النبي ﷺ يوم بدر، حين ذكر له ضعفه وكثرة بناته، وعاهد النبي ﷺ أنه لا يظاهر عليه أحداً[٢]، فلما كانت غزوة أحد، نكث وظاهر قريشاً في حربها للنبي ﷺ، فلما أمكنه الله

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠٩-١١٠).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٠) وذكره ابن إسحاق فيمن سمي له من الأسارى الذين مَنَّ عليهم النبي ﷺ بغير فداء، ومغازي الواقدي (١/ ١١).

منه يوم أُحد، وطلب من النبي ﷺ أن يقيله، قال له: «**لا، والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين، اضرب عنقه يا زبير**» فضرب عنقه[(١)]، وقال: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»[(٢)].

أما يهود بني قريظة، فقد قتلهم النبي ﷺ وحقق فيهم الإثخان في الأرض الذي يحبه الله، وهو منهج الأنبياء مع أهل الفساد، **وقد كان قتله لهم للأسباب التالية:**

١- بنو قريظة داخل المدينة، رتَّبوُّا مع بني النضير خارجها تجميع تلك القبائل والجنود المتكاثرة، فكانت أحزاباً حول المدينة في ذلك البرد الشديد والظروف السيئة لقتل النبي ﷺ، واستئصال شأفة المسلمين.

٢- نقضت قريظة العهد في ساعة الصفر، وماذا كانت تريد؟! كانت تريد استباحة حريم النبي ﷺ والمسلمين!!

٣- لم تستفد قريظة من درس إجلاء إخوانهم بني النضير حين نقضوا العهد، ولا درس إجلاء إخوانهم بني قينقاع، فكان نقض بني قريظة بمثابة نقص ثلاثة عهود، وهو دليل على الحقد الدفين الذي لا نهاية له، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: (وأما قُريظة، فكانت أشدَّ اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظهم كفراً، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على إخوانهم)[(٣)].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٦)، وضعفه الألباني في الإرواء (٥/ ٤١) (١٢١٥).

(٢) أورده ابن هشام في المصدر السابق بلاغاً من مرسل ابن المسيب، وهو في صحيح البخاري كما في الفتح (١٠/ ٥٤٦) (٦١٣٣) وقال ابن حجر: "يعني ليس من شيمة المؤمن الحازم الذي يغضب لله أن ينخدع من الغادر المتمرد فلا يستعمل الحلم في حقه" ا.هـ.

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٢٩).

٤- قبلوا حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فيهم، ومن ارتضى محكمين ليحكموا فيه فقد فوَّض لهم، فلهم أن يحكموا بما يرونه عدلاً، كيف وهو الذي قد ذهب إليهم قبل ذلك ليحول بينهم وبين عزمهم على نقص الميثاق والعهد، فردوه رداً منكراً!! فعرف عندها ما كانوا يريدون من اقتلاع الإسلام وقتل أهله!!

٥- أن هذا الحكم موافق لشريعة يهود أنفسهم، فهو ما تقضي به كتبهم الدينية[١]، ولذلك لم يشكوا في عدالة حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وأنهم يستحقون ذلك العقاب، كما نلمسه من تصريح قادتهم عند تقديمهم للقتل، ومع ذلك تأبى حتى هذه الصفحة من العدل والإنصاف من سيرته ﷺ إلا أن تنتهي بالرحمة والإحسان، ذلك أنه حينما جمع أسرى بني قريظة في دار أسامة بن زيد[٢]، أمر لهم بأحمال التمر فباتوا يقضمونها، وقال لأصحابه: «**أحسنوا إسارهم وقيلوهم، واسقوهم حتى يبردوا، فتقتلوا من بقي، لا تجمعوا عليهم حرَّ الشمس وحر السلاح**» وكان يوماً صائفاً فقيَّلُوهم وسَقَوهم[٣].

كما كان يأمر بالإحسان حتى في طريقة القتل، وأن لا تكون بطريقة يتعذب فيها المقتول، فصح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة...**»[٤].

---

(١) سيرة خاتم النبيين لأبي الحسن الندوي. (ص٢٠٦).

(٢) قال الواقدي في المغازي (٢/ ٥١٢): " فأمر بالسبي فسيقوا إلى دار أسامة بن زيد، والنساء والذرية إلى دار ابنة الحارث ".

(٣) مغازي الواقدي (٢/ ٥١٢-٥١٤)، وإمتاع الأسماع (ص١٩٤-١٩٥)، وسبل الهدى والرشاد (٥/ ٢٢-٢٤).

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٤٨) (١٩٥٥).

- الاسترقاق:

لم يكن النبي ﷺ يختار الاسترقاق كثيراً، وذلك لكبير رغبته في تحرير الأرقاء وتخليصهم من العبودية، بل لا تكاد تجد أنه ﷺ استرق لذات نفسه من بعض أسراه عبيداً ومماليكاً، مع ما كان له من العبيد.

لكنه أقر ذلك لأصحابه الكرام، وقد كان مُلك الرقاب سائداً قبل الإسلام على أوسع نطاق، فلما جاء الإسلام ضيق أسبابه، فلم يُجِزْه إلا في حرب مشروعة.

ومن تلك الحروب المشروعة: ما فعله النبي ﷺ مع بني المصطلق الذين كانوا قد أجمعوا أمرهم لمحاربة النبي ﷺ، وتهيؤا للمسير إليه، فلم يرعهم إلا قدوم النبي ﷺ عند المُرَيسيع[1]، ففر من فر منهم وبقي من بقي، ثم لما نشب القتال لم يلبثوا أن أُسروا جميعهم وقتل عشرة منهم، فسبى الرسول ﷺ الرجال والنساء والذرية والنَّعَم والشاء، ثم فرَّق السبي فصار في أيدي الرجال، وقسم المتاع والنعم والشاء.

فكان أولئك السبي عبيداً في آيادي مالكيهم بتمليك النبي عليه الصلاة والسلام لهم إياهم، وما أن علم الصحابة الكرام رضي الله عنهم بزواج النبي ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ابنة سيدهم، حتى لم يطيقوا استبقاء الأرقاء والسبايا ممن أصبحوا أصهاراً للنبي ﷺ، إكراماً له وإجلالاً[2].

---

(١) اسم ماء في ناحية قُديد إلى الساحل. معجم البلدان (٥/ ١١٨) وهو ماء لخزاعة. الروض الآنف (٤/ ١٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/ ١٨٢-١٨٧)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ٤٨٦ -٤٩١).

حتى كانت جويرية ﵂ أيمنَ امرأة على قومها، تقول عائشة ﵂: (فلقد أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم منها على قومها بركة)[١].

فانظر إلى الهدف الأسمى الذي كان مقصوداً للنبي ﷺ، حيث توصل بذلك الزواج لتخليص أولئك الأسرى من الرق بطريقة الرضا والطواعية، فأعقب ذلك أن أسلموا جميعاً لحسن تلك المعاملة التي تذوقوها من النبي عليه الصلاة والسلام، فغدوا من جند الإسلام بعد أن كانوا من أعدائه!

فهكذا كانت أهداف النبي ﷺ من الزواج، وهكذا كان النبي ﷺ يسترق، فما يلبث أن يُحرر ويُعتق، تفضلاً منه وإحساناً، فيأسر بذلك القلوب كما أسر الأجساد، فتعود له بالحب والإجلال بعد أن كانت تتمنى له الموت والإذلال!!

ومع كل ذلك.. كان يقابل دائرتي القتل والاسترقاق للأسرى، دائرتين موسعتين هما: المَنُّ والفداء، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾[٢].

وقد قدّم الله ذكر المَنِّ على الفداء ترجيحاً له؛ لأنه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢) (٣٩٣١)، وأحمد (٦/ ٢٧٧) وفيهما ذكر القصة وهي كما ذكرنا في سيرة ابن هشام وكذلك في طبقات ابن سعد (٨/ ١١٦) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٣١).

(٢) سورة محمد. آية (٤).

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ٨٠).

- **الفداء:**

والمقصود به إطلاق الأسير بمقابل، سواءً كان مالاً، أو أسرى عند العدو أو غير ذلك، ولا يخفى ما في ذلك من المصلحة للطرفين، ولذا نجد أن النبي ﷺ استعمل ذلك في أول معركة كانت بينه وبين المشركين ألا وهي بدر، فكان ثمن فداء المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل، إلى ألف درهم، إلا من لا شيء له، فمنَّ رسول الله ﷺ عليه[1]، وهذا القرار في بداية معارك الإسلام، قد جمع بين الرحمة والحكمة، ففيه تخليصهم من القتل وكسب قلوبهم بإحسان المعاملة، كما فيه - أيضاً - تقوية لدولة الإسلام وجيشها، وإضعاف للمشركين وجندهم، والاستعانة بتلك الأموال على قتال الأعداء.

ولقد حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة ذلك فقال: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارى؟**» فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى؟ يا بن الخطاب**» قلت: لا والله يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكِّنَّا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلتُ...[2].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٥) (١٧٦٣).

قال ابن القيم رحمه الله: (وقد تكلم الناس، في أيِّ الرأيين كان أصوب،... ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر هؤلاء الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً، ولموافقة الله له آخراً، حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصِّدِّيق، فإنه رأى ما يسقر عليه حكم الله آخراً، وغلَّب جانب الرحمة على جانب العقوبة)[1].

وإنما اختار النبي ﷺ هذا الفداء، لما فيه من الرحمة والرأفة مع من أذلَّهم الأسر، وأخضعتهم الهزيمة، وهو الموافق لكمال أخلاقه وعظيم رأفته ورحمته، وكمال رجائه أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، ثم إن الفداء يجهز على بقية نخوتهم وكِبرهم وبَطرهم، ويوصلهم إلى حافة الفقر، لذلك عجز كثير منهم عن أدائه، مما جعل النبي ﷺ يَمُنَّ على بعضهم كما تقدم، أو يعدل عن فداء من لا يقدر على البذل، إلى تقديمه عملاً مكافئاً، وهو تعليم أولاد الصحابة القراءة والكتابة إن كان الأسير يعلم ذلك، ولم يقدر على الفداء[2].

• وأما مثال فداء الأسرى بالأسرى، فما أخبرنا به سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حين خرج في غزوة كان النبي ﷺ أمَّرَ عليها أبو بكر الصديق رضي الله عنه ... قال سلمة: فجئت بهم أسوقهم - يعني: الأسرى - وفيهم امرأة من بني فزارة، معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر، فَنفلَني أبو بكر ابنتها، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق، فقال: «**يا سلمة! هب لي المرأة**» فقلت: يا رسول الله! والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: «**يا سلمة! هب لي المرأة. لله أبوك**» فقلت: هي لك يا

(١) زاد المعاد (٣/ ١١).

(٢) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي. (ص١٠٠)، وسبل الهدى والرشاد (٤/ ١٠٥).

رسول الله! فوالله ما كشفت لها ثوباً، فماذا تُراه صنع بها رسول الله ﷺ؟! لقد بعث بها إلى أهل مكة ففدى بها ناساً من المسلمين، كانوا أسرى بمكة[١]!!

فانظر إلى سمو الهدف ونبل الغاية وسلامة المقصد، وهكذا كان خلق الفداء تهتف فيه المصالح بالمراحم لتتلاقى بين بيوت المسلمين والمشركين!!

- المَنُّ بلا فداء:

وأما المنُّ على الأسرى وذلك بإطلاقهم من غير عوض، فهو نعمة كبرى تُسدى للأسير، وأي نعمة أكبر من نعمة تُعيد للإنسان حياته بلا مقابل، بعد أن كان على شفى فُقدانها؟!

وحين نريد أن نقرأ هذا الخُلق في سيرة النبي ﷺ، لا نجد عناءً في وجود أمثلة ذلك لكثرتها، وقد مر شيءٌ منها فيما مضى، فحين أمكنه الله من مشركي مكة بعد صدودهم وعنادهم وما وقع بينه وبينهم من حروب دامية، يقول لهم حين فتح مكة: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[٢]، فجعلها النبي ﷺ منَّة شاملة وعفواً عاماً، كما مَنَّ على ثمانين رجلاً أسرهم يوم الحديبية كانوا يريدون غِرَّته[٣].

كما مَنَّ على ثمامة بن أثال وغورث بن الحارث[٤]، بل أبى هذا الخلق العظيم إلا أن يُداخل الأخلاق الأخرى، فيوم أن طلب الفداء من أسرى بدر مَنَّ على من لم يستطع الفداء لفقره أو عياله، كأبي العاص بن الربيع، والمطلب بن حنطب، وأبي عزة عمرو الجمحي[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٧٥) (١٧٥٥).

(٢) سبق تخريجه في خلق (العفو عند المقدرة). (ص١٦٥).

(٣) سبق تخريجه في أول القسم الثالث (العدو). (ص١٥٧).

(٤) سبق تخريج قصتيهما في خلق (العفو عند المقدرة). (ص ١٦٢) و(ص ١٦٣).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٩ – ٢٢٠).

ويوم أن أجهز على بني قريظة -كما تقدم- مَنَّ على الزبير بن باطا، وعطية القُرظي، ورفاعة بن سموأل، وعمرو بن سعد[١]، وذلك لعدم نقضهم للعهد، أو استجابة لرغبة شفعائهم، لما كان من أمور بينهم، أو غير ذلك من الأسباب.

• كما مَنَّ على هوازن برد سباياهم من النساء والذرية، وفاءً لمراضعه منهم، فإنه لما أدركه وفد هوازن بالجعرَّانة، وكان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عِدته، قالوا: يا رسول الله، إنا أهل وعشيرة قد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا من الله عليك، فقام خطيبهم زهير بن صرد وقال: يا رسول الله، إن اللواتي في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك وحواضنك[٢] واللاتي كن يكفلنك، ولو أنا أرضعنا للحارث بن أبي شمر، أو النعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، لرجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير مكفول[٣]، ثم أنشد قائلاً:

أمنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير
يا خير طفل ومولود ومنتخب ... في العالمين إذا ما حصَّل البشر
إن لم تداركْهُمُ نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملأه من محضها الدرر
يا خير من مرحت كمت[٤] الجياد به ... عند الهياج إذا ما استوقد الشرر[٥]

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ١٤٤ -١٤٩) وفيها قصصهم وأسباب المن عليهم.

(٢) يعني بذلك: حليمة السعدية، فهي من بني سعد بن بكر.

(٣) سيرة ابن هشام (٤/ ٩٨) وأصله في الصحيح كما سيأتي قريباً، لكنه مجمل بدون هذا التفصيل في طلبهم له.

(٤) الكميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم... والكمتة لون بين السواد والحمرة، يكون في الخيل والإبل. لسان العرب (٢/ ٨١).

(٥) الروض الأنف (٤/ ١٦٦)، وفتح الباري (٧/ ٦٢٨ -٦٢٩).

فسارع النبي ﷺ إلى الوفاء ولم يتأخر، على أن الإمام إذا قسَّم الأموال والغنائم لم يكن له أن يرجع في ذلك، وكان النبي ﷺ قد قسمها بين المسلمين.

فقال لوفد هوازن: (معي مَن تَرون، وأحبُّ الحديث إليَّ أصَدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم - وكان أَنظَرهم بضع عشرة ليلة حين قَفَل من الطائف - فقالوا: إنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهل، ثم قال: أما بعد.. فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين - وكانوا قد أسلموا -، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيَّبنا ذلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرفاؤكم أمركم**». فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيَّبوا وأذِنوا)[1].

يا لها من أخلاق!! رحمةً بمن كانوا أعداء، ومناً على من كانوا أسرى، ووفاء للمرضعة، وعدلاً مع المسلمين، فأي صدقٍ يرجوه أهل الأرض بعد ذلك؟!.

لقد أقامت تلك المعاملات والأحكام مع الأسرى ما ينبغي للدعوة ونصرة دين الله، وإقامة دولته في الأرض، مع إحاطتها بسياج متين من الرفق والرحمة والإحسان.

حتى كان ذلك السلوك الأخلاقي العظيم، من المن والفداء مدعاة لإيمان كثير من هؤلاء الأسرى، بل مدعاة لتلاقي مناحي التفكير بين الأسرى وآسريهم، مما أتاح للدعوة أن تسري إلى القلوب بغير عناء، وتلج بلا استئذان، فيعود الأسرى إلى بلدانهم وأهليهم، وهم يتحدثون عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه، وسماحة مجتمعه، وما في دعوته من البر والهدى، والصلاح والتقى، والإيثار والإخاء، والخير والوفاء!!

---

(١) أخرجه البخاري كما في الفتح (٧/ ٦٢٧) (٤٣١٨) (٤٣١٩).

الخاتمة

وبعد هذا التطواف الماتع في مُدن الأخلاق العريقة التي أنشأها خاتم الرسل والأنبياء ﷺ، من خلال الحروب والمعارك المدهشة، رأينا كيف شُيدت تلك القصور الشاهقة الجميلة التي كأنما الساعة بُنيت، فكيف قامت ولماذا بَقيت؟!

لنقف وقد هدتنا سيرته الفذة إلى قارب النجاة الذي أرفأنا إلى شاطئ السلامة، وبر الأمان، لنلتفت فيه إلى الوراء، فنرى كيف ينخر عُباب البحر الأزرق، وقد سطع في تلألئُه ضوء القمر، ليتحرك نوره اللطيف مع نسمات الهواء العليل، وقد انعكس على أمواج البحر الهادئة، ليستثير في النفوس كوامن الضمائر الحية، لتطفوا تلك الخلال الكريمة والخصال الحميدة، فتبدو في سمو وعلو، ليس ينبئ إلا أنه بشر لا كالبشر!!

لتتجلى لنا الحقائق في أروع صورها، وتظهر لنا النتائج في أبهى حُللها، من بين ثنايا الإبداع العسكري، والسيرة الحربية، فنرى كيف تزيد الحروب لمعان الفضائل، وكيف تحرق الحروب ركام الرذائل؟! ليتأكد لنا أن حروباً تكون بهذا الوضوح وتلك القوة والدقة في كشف أستار الظلم وانتشال الزَيف، لِتَزرعَ بدلاً منه العدل والطُهر ومكارم الأخلاق، لهي المراحم حقاً!!

ليعلم - بعد ذلك - الجميع، أن جيوش محمد ﷺ لم تكن متعطشة قط للدماء، بقدر ما هي تريد أبداً نشر رسالة السماء!! ذلكم هو السلام والإسلام حين يبث نوره الوضاء، فتهتز الأرض بدعوته السمحاء!! لتمر الأيام والأعوام، وذكرى تلك الحروب جديدة مشرقة، لا تبلى ثيابها، ولا يضعف رواؤها، فكانت ولا تزال نشيداً عذباً في فم الإنسانية، ولحناً سماوياً تهتف به الأجيال، كلما ظمئت إلى نبع الحياة الكريمة، والمثل الرفيعة، والقيم العليا النبيلة...

ألا إنـــما كـــان النبـــي محمـــد إلى أجـل وافى بـه الوقـت فـانقطع
نـدين عـلى العِـلات منـا بدينـه ونعطي الذي أعطى، ونمنع ما منع
ووليـــتُ محزونـــاً بعـــين ســـخينة أكفكف دمعي والفؤاد قد انصدع
وقلـت لعينـي: كـل دمـع ذخرتـه فجـودي بـه إن الـشجي لـه دفـع

فلتهتف الإنسانية كلها، لترتل في نَغَم حلو المذاق، بهي الطَّلة، صادق الإحساس، لتقول بكل شرف وأمانة:

ألا ما أجلك وأكرمك وأعظمك يا رسول الله!!

لقد أديت الرسالة، وبلغت الأمانة، وكتبت في التاريخ أخلد الصفحات، وتركت للعالم أروع الذكريات...

ولتتقدم الإنسانية كلها لتعلن في الأفق صلواتها ودعواتها لمحمد رسول الله ﷺ، فصلوات الله عليك أيها النبي الطاهر الزكي.

فاللهم صل على المبعوث رحمة للخلق أجمعين، وصل عليه ما لهجت بالذكر ألسن المتقين، وصل على محمد ما شدا الطير في خضر البساتين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
التمهيد ٩
[١] وكفى بالله شهيداً ١١
[٢] في سبيل الله ١٢
[٣] الإسلام دين واقعي ١٤
[٤] (السلم) قبل (الحرب) ١٧
[٥] الاستقرار الداخلي مطلب ١٩
[٦] لماذا قاتل محمد ﷺ؟! ٢٢
[٧] الغزوات والسرايا ٢٧
[٨] المدخل للأقسام ٢٩
القسم الأول: القائد ٣١
مدخل ٣٣
[١] الشجاعة ورباطة الجأش ٣٥
- إقدام وقوة: ٣٨
- لا نامت أعين الجبناء: ٤١
[٢] قوة التعلق بالله ٤٣
- ذكر الله والتواضع له: ٤٥
[٣] التخطيط قبل الحرب ٤٩
- الكتابة: ٥٠
- الكتمان والسرية: ٥٠
- وفي فتح مكة: ٥٢

- جمع المعلومات: ٥٣
- أحد سرايا التحري: ٥٤
- العيون والاستخبارات تكشف حركة العدو: ٥٦
[٤] التخطيط أثناء الحـرب ٥٧
- المفاجأة: ٥٧
- وفي أُحد: ٥٩
- وفي الأحزاب: ٦٠
- حماية القيادة: ٦٢
[٥] التخطيط بعد الحـرب ٦٤
- فطنة وملاحقة: ٦٤
- غزوة حمراء الأسد: ٦٥
- استثمار الانتصار: ٦٧
- نصر الرحمة: ٦٨
[٦] النزاهة وشرعية الحـرب ٧٠
- أسباب الغزوات: ٧٠
- الهدف المعلن: ٧٣
- الزهد في الدنيا: ٧٥
- (فتعالين أمتعكن وأسرحكن): ٧٨
[٧] عـدل الحليم ٨٢
- قوم يُشرون بالإيمان، وقوم يُشرون بالجمال: ٨٤
- أخلاقيات المقطع: ٨٧
- بين حاطب وذو الخويصرة: ٨٩

[٨] الحرب خَدعـة!! ٩١
- نعيم بن مسعود وتخذيل العدو: ٩٢
- الحنكة العسكرية: ٩٥
- الحجاج بن علاط السلمي: ٩٦
- الكذب في الحرب: ٩٨
- الحذر: ١٠١
- الحزم والعزم: ١٠٣
القسم الثاني: الجنـــد ١٠٧
مـدخـل ١٠٩
[١] الاستشـارة ١١٠
- المستشار: ١١١
- تمثل خُلق الشورى في الحرب: ١١٣
[٢] الإعداد المعنوي للجنـد ١٢٠
- التربية الإيمانية: ١٢٠
- التفاؤل والتشجيع والثناء: ١٢٥
- العزم والتصميم والحكمة: ١٢٩
[٣] الإعداد المادي للجند ١٣٣
- التدريب والرمي: ١٣٤
- الانضباط: ١٣٨
- التسليح: ١٤٠
[٤] محمد ﷺ والجنـد ١٤٣
- التواضع: ١٤٤

- المحبة والرحمة: ١٤٨
القسم الثالث: العدو **١٥٣**
مدخل ١٥٥
[١] الصبر والعفو والحلم ١٥٨
- (هم العدو فاحذرهم): ١٥٨
- العفو عند المقدرة: ١٦١
- حلم النبوة: ١٦٥
[٢] الوفاء ١٧٠
- المعاهدة الوفية والسياسة النبوية: ١٧١
- نقض اليهود للعهود: ١٧٣
- خُلق المنابذة: ١٧٧
- صلح الحديبية: ١٨٠
- أخلاقيات الحديبية والبراعة الحربية: ١٨٦
[٣] من أحكام الحرب وآدابها ١٨٩
- التخيير للعدو: ١٨٩
- التفريق بين المقاتلين وغير المقاتلين: ١٩٢
- العبث والإفساد في الأرض: ١٩٥
[٤] الأسرى ١٩٨
- الإطعام والكسوة والمحاورة والإحسان: ١٩٨
- الإحسان لا ينافي التخير في الحكم: ٢٠٢
- القتل لشِرار الأسرى: ٢٠٣
- الاسترقاق: ٢٠٦

- الفداء: ٢٠٨
- المَنُّ بلا فداء:.....٢١٠
الخاتمة.....**٢١٣**
فهرس الموضوعات **٢١٧**

هتف المراحم بالملاحم

إبراهيم بن عبدالله الغنام

دار العقيدة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف 0503310067